

السنة التاسعة (ربيع الاول سنة ١٣٦١ - ابريل سنة ١٩٤٣م) العدد الرابع

صحيفة دار العلوم

نصيرها: جماعة دار العلوم
كل ثلاثة أشهر

رئيس التحرير

محمد علي مصطفى

المدير

محمد نجيب قتيبة

المراسلات الخاصة بالتحرير ترسل باسم رئيس التحرير
بنادى دار العلوم ٧٧ شارع الملكة نازلى

الاشتراكات والحوالات المالية

ترسل باسم أمين الصندوق

السباعى بيومى

المدرس بدار العلوم

مكتب بريد الهواوين

الاشتراك السنوى

٢٠ قرشاً	_____	في القطر المصرى
٣٠ قرشاً	_____	خارج القطر
٥ قروش	_____	من العدد

مطبعة العلوم بشارع الخليل ١٦٣

إِنْ بَاحِثًا مَدَقَّقًا لَوْ أَرَادَ أَنْ يَعْتَرِفَ أَنَّ مَوْتَ
اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَالْأَنْحِيَا الْوَجْدَهَا مَوْتُ فِي كُلِّ مَكَارِبٍ
وَأَنْحِيَا فِي أَمْرِ الْعُلُومِ

الْأَنْشَاءُ وَالْأَمْرُ الْمَوْجُودُ

صفحات مجهولة

من تاريخ العرب في أوروبا (١)

للمستاذ عمر الدسوقي

من تلك الرمال الهادئة الوداعة ، وتلك البقاع النائمة الهاجعة ، وهاتيك الفقار
التي تندد فيها نسمات الحياة ، دوت صرخة الحق والدنيا تنط في سبات عميق من
الجهل والظلم ، والرق والعسف ، فارتجت أطرافها من تلك الصيحة المدوية ، وزلزلت
عروش غاصت أقدامها في بطون القرون . وبسطت أذرعها على جنبات البسيطة ،
وأخذ ذووها يتسالمون : أى داهية دهياء انصبت على الأرض فادت ، وأى قوة
هزت أعوادها فساخت ؟ ١١٢

أجل ! ظهرت بين وهاد مكة وشبابها عصابة عمر الايمان أفندتها ، واهتدت
بهدى الله وقرآنه فخطمت رموز السخف العقلي والانحلال الخلقي ، وآثرت أن
تبعث في العالم نفحة من قوة يقينها ، وتبدد دياجير الجهل بشعلة إيمانها ! فالتحت
بعد أن كانت أباديد ، وانساحت في أرجاء المعمورة صفوفا متراسة . مثل أركان
الجبروت والطفيان ، وتنصف للحق من البغي والعدوان .

أرأيت السيل الجارف كيف يكتسح ما يعترضه من جلائد الصخر وباسقات
الأشجار ، وكيف ينساب في الأودية فتته وتربو وتثبت من كل زوج بهيج ؟
هؤلاء هم العرب بعد أن دخل الاسلام قلوبهم فاستل منها الإحسان والأحقاد ، كانوا
حرباً على الممالك الظالمة والقوى الناشئة ، ولبسوا غداً على من مل قيود الذل وملته
فانعثت فؤاده المكوم ، وأجيت موات نفسه الكسيرة ، فارتدت إليه حريته ،
وحفظت حقوقه وسلت عقيدته ١١٣

(١) محاضرة القيت في نادي دار العلوم في ١٨ من فبراير سنة ١٩٤٣

أيها السادة !

كلنا يعلم ولا ريب كيف غرس العرب في شبه جزيرة أيبيريا تلك الدوحة الفيتانة التي ظلت تنفخ العالم بظلمها الوريث وممرها الشهى ثمانية قرون . أعنى الاندلس ، تلك الأغرودة العذبة في ملحمة تاريخنا المجيد . ولا أريد أن أدخل معكم في تفاصيل فتحها فذلك مرقوم في سجلات التاريخ ، ولكن حديثي سيتشعب ثلاث شعب : إلى أي مدى وصل توغل العرب في أوروبا ، وما الأثر الذي خلفوه في عقائدها وآدابها وفنون حياتها ؟ وما الأسباب العامة التي عصفت بتلك الدوحة الشاحخة فاجتثتها لعل في ذلك تذكرة ، ونحن في حاجة إلى الذكرى ولا ريب .

فتح السمح بن مالك الخولاني والى الاندلس من قبل الخليفة الاموي عمر بن عبد العزيز مدينة أربونة عبر جبال الاندلس وهي من مدن فرنسا سنة ٧١٩ ثم والى زحفه حتى قرع أبواب طولون وضيق عليها الحصار وكادت تفتح في يده لولا أن فاجأه مدد العدو فاشتد القتال وحى وطيسه ويقول المؤرخ الفرنسي جوزيف رينو (١) : ولما تلاقي الجمعان خيل أن الجبال يلاق بعضها بعضا وكانت المعركة من أهول ما يتصور العقل — وكان السمح يظهر في كل مكان وسيفه ينطف دما وهو يشعر عساكره بقوته وفعله ، وكان كالفضل الهائج الذي لا يرد رأسه شيء ، أو كالاسد الزائر يحمل على العدو فلا يقف أحد في وجهه فاهو إلا أن أصابته طمعة خربها صريعا عن جواده ففت ذلك في عضد المسلمين ونكصوا على أعقابهم يتولى أمرهم عبد الرحمن النافقي وأرجعهم إلى الاندلس ، . وقد حاول الفرنسيون الثورة مرارا على العرب بعد هذه الحادثة ، ولكن تحصين أربونة على يد السمح (الذي لا يزال له شارع يعرف باسمه في تلك المدينة) وقف في وجوههم حجر عثرة . ثم تمكن العرب فيما بعد من تمكين أقدامهم ببلاد الغال في إمارة عيسى السكبي ، ففتح قرقشونة ، وأحسن تدبير البلاد ونظم الخراج والجزية ، وخلفه (حديدة) الذي استطاع أن يدفع بالنزوح حتى كليرمون ويدخل مقاطعة دوفني Dauphiné وعاصمتها

(١) ولد سنة ١٧٩٥ وتوفى سنة ١٨٦٧ في كتابه غزوات العرب في مرقسه ومافوى وبيبلوت

جرينويل ، ويفتح مدينة ليون وبلاد بروجونيا إلى وادي البرون . وشمل الغزو Maçon التي تبعد عن باريس ٤٤١ كم . ثم أوغاو حتى وصل إلى ديجون Digon ودمروا كما يقول رينو دير Bize . ويذهب رينو إلى أنهم وصلوا إلى مقاطعة Tranche-Conté وعاصمتها بيزاندون ، ويقول ليس في هذا شيء لا يقبله العقل ولا سيما فيما يتعلق بمقاطعة فرنش كوتى التي لاتزال بها أسماء عربية وآثار كثيرة تدل على أنهم دخلوها .

ومن ثم تولى إمارة الاندلس القائد العربي الكبير والتابعي للجليل عبد الرحمن الغافقي فاكسح بجيوشه جبال البرانس حتى وصل إلى بوردو وأخذها عنوة فاستجد دون اكتانية بشارل مارتل أمير فرنسا فأخذ يعد العدة للقائهم وقد وصل العرب حتى مدينة تور على نهر اللوار وأخذوها عنوة بمشهد من جيش شارل مارتل . ثم تلاقى الجمعان بين تور وبواتيه واشتد الظى المعركة وأبلى فيها عبد الرحمن بلاء حسنا إلى أن قتل فقر العرب واحتموا بمدينةهم الحصينة أربونة .

ومن أهم العوامل التي خذلت العرب في هذه الموقعة التي يسمونها بلاط الشهداء حرصهم على الغنائم التي أحرزوها قبل المعركة وكان عبد الرحمن قد هم بأمرهم أن يتركوها حتى لاتبقى قلوبهم مشغولة بها عن القتال ، ولكن توجس خيفة أن يكسر ذلك من قلوبهم فتفتر عزائمهم ، فاذن لهم بحفظها وهو كاره ففعلوها وراء المعسكر وأعينهم تتطلع إليها . وقد علم الفرنج ذلك فحولوا جزءاً من جيشهم ليهاجم المعسكر وما فيه من الغنائم والأسلاب فارتدت العرب اليه ولم يصمد في الميدان من يقاتل السواد الأعظم من جيش شارل مارتل فكانت الظامة الكبرى . ١١٥ هـ و ٧٣٣ م .

وقد بالغ مؤرخو الفرنجة في وصف هذه الموقعة ونتائجها وقالوا لولاها لانتشر الاسلام ورفرف العلم العربي على أوروبا جمعاء كما حولوا في بطولة شارل مارتل لأن جيش العرب على زعمهم كان نصف مليون أيبد منه ثلاثمائة وخمسون ألفاً من الجنود الأبطال . وهذا ولا ريب ظاهر المبالغة لأن جحشاً هذه عدته من العسير جمعه ،

وإذا جمع من الصعب ضبطه وتموينه في تلك القرون الخوالي . وقالوا انه سمي مارتل
أى المطرقة منذ ذلك الوقت .

وقد حاول الفرنسيون أن يخرجوا العرب من أربونة بعد ذلك فصمدت لهم
وشغل شارل مارتل فعاود العرب الكرة واحتلوا مدينة ليون من جديد وكل مقاطعة
بروفانس الى أن أجلاهم عنها وعن أربونة يدين القصير ابن شارل مارتل
سنة ٧٥٩ م

وهنا يظن كثير من الناس أن تاريخ العرب بفرنسا قد انتهى ويحارون في تعليل
كثير من الآثار التي وجدت في جبال الألب وسويسره والبروفانس . وسنبين
فيما يلي عهداً أطول وأزهر للعرب في فرنسا .

استعمل العرب الاساطيل منذ جاء إلى الاندلس الأمير عبد الرحمن الأموي
الملقب بالداخل وهاجوا فرنسا من الجنوب وكان نزولهم في المكان المعروف
حتى الآن بـ Antibe أى عين الطيب بالغرب من نيس التي يقول لها العرب
(نيقية) كما مهدوا لذلك بالاستيلاء على سردينيا وكورسيكا ، ويوجد بسردينيا
حتى الآن في ولاية غاليلارىagliari قرية أصل سكانها من العرب وقد دخلوها
سنة ٨٠٦ في حكم شارلمان ، وفي هذه الأثناء جرت حادثة مهمة أدت إلى الاستيلاء
على جزيرة كريت ، وذلك أن أهالى ريف قرطبة ثاروا على الحاكم أميرهم فسار
إليهم برجاله وحرسه وأوقع بهم وقتل منهم مقتلة عظيمة ونفى بقية السيف وكانوا
زهاء خمسة عشر ألفاً فاركبهم البحر فدخلوا الاسكندرية عنوة يد أن حاكمها
أجلاهم عنها فزحوا الى جزيرة كريت بقيادة أبو حفص عمر البلوطى سنة ٢٥٠ هـ ،
٨٢٥ م وبقوا فيها ١٣٥ سنة ولكن غلب عليهم الروم وتنصر معظمهم وفر من
فريدينه .

أما صقلية فكانت من أوائل البلاد التي احتلها العرب وقد غزيت أول الامر
هى وكريت في عهد معاوية بن أبى سفيان وثانيا سنة ٢١٣ هـ على يد قاضى القيروان
أسد بن القرات واستتب بها أمرهم وشادوا بها المساجد الكثيرة حتى روى ابن
حوقل الرحالة الشهير أنه رأى في بالرم عاصمتها عشرة مساجد على مقدار رمية

السهم ودام ملك المسلمين بها الى سنة ٦٤٤ هـ حينما غلبهم عليها الفرسان النورمانديون
بيد أن الاسلام بقى بها بعد ذلك وكان ملوكها المسيحيون يحبون العرب ويثقون بهم
وقد ازدهرت الثقافة الاسلامية العربية خصوصا في عهد فردريك الثاني امبراطور
جرمانية وملك صقلية الذى كان كل شيء في قصره عربيا من نساء وجواري وحاشية
بل كان وزراءه من المسلمين وأحب اللغة العربية وتربى بزي العرب وفي عهده كان
أول اتصال الانجليز بالعرب فترجم روبرت الانجليزى القرآن لأول مرة

إيطاليا :

ومن صقلية أغار العرب على إيطاليا قال المسعودى فى مروج الذهب : ان
المسلمين جاؤوا اللبárdيين وغابوهم على مدن كثيرة من مدتهم مثل بارى (باره)
وطاريفتو ثم قال ان مدينة تارنتو وسيرين وغيرهما من مدتهم الكبار سكنها المسلمون
مدة من الزمان الى أن أجلاهم عنها فردريك الثانى فى أوائل القرن الثالث عشر
وإحصاء من تبع من أهالى صقلية المسلمين أجل من أن يذكر وناهيك بأن حديد
الصقلى الشاعر المشهور وبجوهر الصقلى مؤسس الازهر وغيرهما .
وهنا ننقل بكم أيها السادة إلى فرنسا مرة أخرى . فى سنة ٨٨٥ نزل جماعة
عن قرصنة البحر العرب بعد أن قدفت بهم ريح زعزع عاتية على شاطئ بروفانس
الجنوبى بالقرب من مرسيليا فوجدوا غابة كثيفة تصلح لهم مأوى فأمرعوا باحتلالها
ولانزال تعرف باسمهم حتى اليوم غابة (مورو) ووجدوا جبلا عاليا يشرف
على البحر ويطل على وديان بروفانس ويعرف اليوم بجبل (مورو) نسبة اليهم
فاحتلوا بها وأنشؤا حصنا عظيما هو حصن فراكسينا نوم . ثم جاءتهم الامداد
من أسبانيا وأخذوا يقذفون العرب فى قلوب القرى المجاورة واستفحل أمرهم ،
وكان ملوك المقاطعات الفرنسية الجنوبية فى شقاق ونزاع فاستعانوا بهؤلاء العرب
الذين أصبحوا سادة البلاد الحقيقين . وأخذوا يتقدمون يوما فيوما نحو جبال
الالب وفى سنة ٩٠٦ دخلوا مقاطعة دوفينى واحتلوا جميع المضائق التى تصل فرنسا
بإيطاليا وقطعوا المواصلات بينهما فصار مرور الناس عائدا الى أذنهم ثم شرعوا
يشنون الغارة على بيمونت وسافوي واستولوا على نيس مرة ثانية وجرينوبل

وجنيف ولوزان في وادي valais واشتكى المطران فالدو سنة ٩٤٠ من غارات العرب الى الامبراطور أوتون الالماني ، لأن الاديرة قد لاقت من الخراب على أيديهم شيئا كثيرا ولأن معابر الالب كانت بأيديهم والقسس والرهبان كانوا مضطرين الى زيارة روما كل سنة للحج فقطع عليهم العرب الطريق ونكلوا بهم تشكيلا فأقطع أوتون الرهبان أملاكا كثيرة على سبيل التمويض بموجب مرسوم مؤرخ سنة ٩٥٦ لا يزال محفوظا في أديرة سويسرا .

وقد حاول Heigues هوغ ملك بروفنس أن يخرج المسلمين ورأى أن أهم معقل لهم هو حصن فرايننت فطلب من صهره حاكم القسطنطينية أن يمدد بسفن حربية ترى عليهم النار من البحر بينما يقوم هو بمهاجمتهم من البر فاستجاب صهره لدعوته وكاد يقضي على العرب في ذلك الوقت بيد أن منافسا لهوغ يدعى Bernger ببرانجه قدم من ايطاليا على رأس جيش عرمرم فاضطر هوغ الى مهادنة العرب على أن يبيع لهم كل جبال الالب على شريطة أن يقطعوا على ببرانجه طريق العودة من ايطاليا ، وهنا اشتد بأس العرب وقويت عزيمتهم فأمنوا في الغزو والغارة ونفذوا ما وعدوا به هوغ وهنا يقول المؤلف الالماني المشهور ليوبتراند في (هوغ) .

« إنه جاء بها صلحاء مفحشة لاسبيل للعدو فيها . ويخاطب برسان برنار بقوله : انك تسهل هلاك الاتقياء وتجعل نفسك حصنا واقيا للظفأة الذين يقال لهم المورو أفلا تتجمل أيها التعس من أن تبسط ظلك على أناس يسفكون الدم البشري . »

وقد ترك العرب آثارا تدل على مكثهم زمنا طويلا بهاتيك البلاد ويوجد بكثيسة القديس بطرس مونتجو في Valais كتابة عربية طمست ولم يبق منها الا بعض الحروف وقد وردت نصوصها اللاتينية وفيها « ان عصاة اسماعيلية انتشرت في وادي الرون وألقت الرعب في البلاد بالنار والحديد ورفعت الهلال في أودية الأبنين . »

هذا وقد جاء في تاريخ جمهورية جنوه لمؤلفه فردريك دي نافار أنه في سنة ٩٣٤ جاءت قوة بحرية اسلامية من أفريقية فحصرت جنوه حصارا شديدا ولم يتمكنوا من دخولها هذه المرة بيد أنهم عاودوا الكرة ودخلوها وأخذوا غنائم كثيرة ورجعوا

فخص أهل جنوة بلدهم منذ ذلك الوقت .
وهناك قرية بجوار رون يقال لها سراسينشكو أصل أهلها من المسلمين كان سلفهم
غزاة وقموا الى تلك الأرض فأحاط بهم الأهالي وقتلوا بعضهم وتنصر بعضهم
ويقال ان سجنهم لا تزال تدل على أصلهم العربي وأن ما كلهم ومشاربهم وصنعة الفناء
عندهم تدل على عروبتهم .

وفي القسم الغربي من وادي الساس بسويسرا الألمانية (مشابل وادي الزاس)
وهي جمع مشابل مكان الأسود وفي القسم الاعلى منه مثلجة على العين Alain .

هذا وكان العرب أينما حلوا يقيمون ويزرعون ويمعمرون ويتزوجون من الأهالي
ولكنهم أجلوا عن پروفانس كلها في أواخر القرن الحادى عشر ، ووقع فى الاسر
منهم عدد كبير تنصر معظمهم واختلط بالأهالي .

وذكر الأستاذ دالماس أستاذ الامراض النسائية بكلية الطب بمونبليه فى محاضراته
عن فضل العرب على جامعة مونبليه .

إن العرب نزلوا ببلدة ماجلون (جمع ماجل) وهو مجتمع الماء (ذكر أبو الوليد
الأزرقى صاحب كتاب أخبار مكة كان بمكة ماجلان أحدهما بالمعلاة) وأقاموا بها
مدة من الزمن إلى أن أجلاهم عنها شارل مارتل وأحرقها حتى لا يعودوا إليها وكانوا
فى أثناء وجودهم فيها يبيعون الكتب الطبية ثم جاء منهم أطباء وصاروا يمارسون
التطبيب . ويقال إنه يوجد فى متحف الجامعة بعض آثار وجدت فى ماجلون عليها
بعض الايات القرآنية والاشعار العربية كما توجد على لوحة الاستاذية أسماء كثير
من الأطباء الذين تعلموا الطب فى الاندلس .

— وعلى العموم فأنهم فى جنوب فرنسا فى الرى والزراعة عظيم وهم الذين
علموهم زراعة الارز والصنوبر واستخرج القطران الذى تطفى به المراكب منها ولا
يزال يقال له حتى الآن فى هذه المقاطعة quitrان قطران .

هذا وقد ظلت أسر عربية عديدة بعد تقلص حكم المسلمين من الاندلس تقطن
فرنسا وسويسرا بعد أن أرغموا على اعتناق النصرانية ومنهم فى جنيف العلامة
ابن أبى زبد الذى كان معاصراً لقولتير وبروسو وكان من أهلى طولوز الذين تنصروا

واعترفوا البروتستانتية فلما صدر أمر لويس الرابع عشر بطرد كل البروتستانتين من فرنسا خرج أبو زيد إلى جنيف، وكان نابها متضلعا في جميع العلوم الرياضية والطبيعية والفلك والفلسفة والتاريخ وغيرها، كما كان صديقا لفلوتر وروسو ونيوتن وكانوا يستفتونه في غويص المسائل. ولا يزال في جنيف شارع مشهور باسم أبي زيد حتى يومنا هذا.

وجود العرب في جنوب فرنسا وسويسرا يفسر لنا ما أشكل على كثير من المستشرقين، وفشلهم في تعليل وجود التروبادور في مقاطعة پروفانس في أوائل القرن الثالث عشر، مع أنه قريب جدا في نغمة ووزنه وموضوعه من الموشحات الاندلسية. وأخذوا يتساءلون كيف وصل هذا الشعر إلى پروفانس ومن نقله ومن ترجمه. الواقع أن العرب الذين أقاموا في هذه المقاطعة وفيما جاورها هم الذين نقلوه من الاندلس وهم الذين أثروا في الشعر الفرنسي حتى أنتج التروبادور. وهذه الكلمة نفسها يحوى مقطعها الاول كلمة عربية أصيلة في الغناء وهي (طروب) (١)

كلمة موهبة عمه الحضارة العربية في أوروبا

وبكيفيك أن تعلم أن سكان قرطبة قد بلغ نصف مليون نسمة وكان بها ٧٠٠ مسجد، وثلاثمائة حمام. وقد بلغ عدد منازلها مدة حكم عبد الرحمن الناصر ١١٣ ألف منزل وكان لها احدى وعشرون ضاحية وبها سبعون مكتبة عامة، بل كانت المكاتب أحيانا في الحدائق والمتنزهات.

وكانت شوارعها مرصوفة ومضاءة بالليل جميعها بمصابيح النفط ويوازن John Drapar (٢) بينها وبين لندن فيقول: لقد مضت سبعة قرون بعد ذلك ولم يكن في لندن مصباح واحد بضئها ليلا. أما باريس فقد مرت عليها بعد ذلك عدة قرون وهي تعج بالطين والوحل كلما أمطرت السماء، ولا يكاد المرء يخرج من منزله حتى يغوص فيه بقدميه.

(١) The Legach of Islam

(٢) History of Intelceual development of Europe

وبينما كان يعد طلبة أكسفورد الاستحمام عادة ونية كان علماء قرطبة يتمتعون منذ أجيال بالاستحمام في أحواض أنيقة . ولقد حدث هذه الحال التي كان الأوروبيون يعيشون فيها من التأخر والانحطاط ابن سعد صاحب الطبقات أن يعمل مأمم عليه فيقول : ولما كانت الشمس تشرق عليهم منحرفة صار بهم باردا ملبدا بالغمام ، وقد أدى ذلك إلى برودة مزاجهم وخشونة طباعهم بينما ضخمت أجسامهم وطالت شعورهم ، وقلت حدة ذكائهم ونفاذ بصيرتهم ، ولا ترى بين رجالهم إلا البلادة والغفلة .

كانت قرطبة بمثابة باريس أو لندن أو نيويورك في عصرنا هذا . كلما احتاج ملك ليون أو نافار أو برشلونة طبيباً أو مهندساً أو أستاذاً في الموسيقى أو حائكاً اتجهوا صوب قرطبة .

وكانت انجلترا وفرنسا تستورد من الأندلس في ذلك العهد الجلود المدبوغة والثياب والفسج والحرير والصوف والأواني الزجاجية والنحاسية والحديدية والرصاصية .

وكانت الحلى الياقوتية والذهبية تبتاع في ملقا . وكانت زخرفة الآنية بالفضة والذهب ، ونقش الأزهار عليها صناعة رائجة في الأندلس أخذها عرب المغرب عن دمشق الشام ومن هنا دخلت هذه الكلمة في اللغات الأوروبية مثل Damascene بالانجليزية و Damashcan بالألمانية و Damasquines بالأفريقية .

وقد أدخل العرب طرق الزراعة الحديثة في أسبانيا وكثيراً من أشجار الفاكهة فحفروا القنوات التي لا تزال تسمى حتى اليوم في أسبانيا acquia من العربية الساقية وهناك كلمة الأرز بالانجليزية Rice وبالأسبانية arroz وكلمة برقوق بالأسبانية oibaricoque وانقلبت في الانجليزية oprieot والرمان حيث لا يزال عصيره يسمى كذلك في أسبانيا . والزعفران بالانجليزية Saffron وبالأسبانية ozofran وكلمة شراب بالأسبانية Jarobe وبالانجليزية Syrup إلى غير ذلك من ألوف الكلمات التي لا تزال متغلغلة في صميم الحياة الأسبانية والبرتغالية خاصة وأوروبا عامة ولا سيما في العلوم والاصطلاحات فالموسيقى مثلاً يدين بها الأوروبيون للعرب إذ أن

آلاتها عربية فالقيارة صارت guitae والعود lute والرباب Rebeck . وليس هذا لحسب بل إن النوبة الموسيقية التي اخترعها الخليل بن أحمد وزاد عليها الفارابي والكندي وابن سينا مع ما عرفوه من الموسيقى اليونانية قد أثرت أثرا كبيرا في الموسيقى الأوربية إذ لم تكن أوروبا قبل العرب تعرف العزف الجمعي وأوركسترا إلى أن أدخلت الكتابة الموسيقية العربية ، وقد أهدي هارون الرشيد لشرلمان ملك فرنسا منسوجات حريرية وقطنية لم يكن لها وجود في فرنسا ، وكان من جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر عظيم الحجم وساعة من نحاس أصفر أيضا تتحرك بالماء وتدق اثنتي عشرة مرة بعدد ساعات النهار .

ولم يكن أهل أوروبا يعرفون بناء السفن على شكل منظم واسع دقيق وأول من فعل ذلك هو عبد الرحمن الداخل وأسس « دار الصناعة » التي انقلبت فيما بعد دارسنا ثم آرسنا وأضيفت إليها لام النسبة فصارت آرسنال وحرفها الترك إلى « ترسانة » وكان قائد الأسطول يسمى أمير الماء ومنه جاءت كلمة أميرال .

هذا ونظام الفروسية Chevalerie الذي كان معروفا في أوروبا في خلال القرون الوسطى قد تقرر في عهد المنصور ابن أبي عامر ، ومن العرب أخذه الفرنسيون ومنه انتشر في سائر أنحاء القارة .

وكانت تجارة الرقيق منتشرة في أوروبا ، وكان العرب يذهبون إلى بلاد الجرمانين حتى شواطئ البلطيق ، وبلاد السلاف ، ويأتون بأصناف الرقيق ، ويسمون الجميع صقالية ومفردها صقلي ومن هنا جاءت كلمة Esciove بالفرنسية وبقيت في الإنجليزية Slave .

كان ملوك أوروبا في دهشة عظيمة من ملك العرب في الأندلس ، وكانوا يرسلون إلى الأمويين ولأسيما عبد الرحمن الناصر الفراء والهدايا ، فكانت رسل البابا وامبراطور القسطنطينية ، وملوك أسبانيا وفرنسا وألمانيا والصقالية تعد من الفخر أن يسمح لها عبد الرحمن الناصر بتقيل يده ، وكان هو الآخر يبالغ في إكرامهم ، ويفرش الأرض والطرق بالبسط ليظهر عظمته وغناه وقوته .

وأخيرا كانت طليطلة في القرن الثالث عشر كعبة الأوربيين في العلوم والمعارف وإن تقلص عنها ظل الاسلام . وذلك مدة لويس الحكيم الذي كان يكتب بالعربية ويدرس فلسفة ابن رشد ويلعب بالشطرنج الذي علمه له العرب .
ويجدر بنا قبل أن نختم هذه الكلمة أن نذكر الدواعي العامة التي أدت الى خروج العرب من أوربا .

(١) استعان العرب بالبربر في غزو أوربا ، والبربر شعب عنيد صلب القناة ، يشبه العربي في استقلاله برأيه وشغفه بالسيطرة والحرية فاستقر بالفزاة الأمر في الأندلس حتى ابتدأ التنافس .

كان العرب هم السادة ، والبربر مسودين فأنفت طباعهم البدوية قبول السيطرة طواعية ، وقدما لم يقبلوا الاسلام إلا بعد أن غزاهم العرب اثنتي عشرة مرة ، وصاروا يتربصون باسيادهم الدوائر ، وكلما لاحت فرصة انتفاض على الحكم أو بارقة أمل باستقلال مقاطعة سارعوا اليها ، وهكذا كانوا دائما من أكبر عوامل الشعب والاضطراب . فاذا نكل البرابرة بالعرب انتهز الفرصة الفرصة وطردوهم من احدى المقاطعات ، واذا عاود العرب الكرة على البربر هاجم الفرجة الفريقتين ، والأدهى من ذلك أن كلا الفريقين كان يستعين بالأجنبي (أيام هشام الثالث مثلا) وكان الأجانب يشترطون للنجدة كذا وكذا من الحصون .

(٢) وبألت الأمر اقتصر على هذا العدو الداخلي والعدو الخارجي ، بل كان العرب أنفسهم في حالة يرثى لها ، حملوا معهم من الشرق عصبياتهم وحزبياتهم وععناتهم ، فشيعة وسنة ، ويمنية وقيسية ، وروى (دوزى) المؤرخ المشهور : أن النينة والقيسية خرجوا في سنة ١٣٧ هـ من قرطبة للقتال فالتقوا قرب (شقندة) على نهر قرطبة ، ولما صلوا الصبح أخذوا يتطاعنون بالرماح حتى تكسرت ، ثم تضاربوا بالسيوف حتى تقطعت ثم تقابضوا بالأبدى وأخذ كل بتلايب أخيه وشعره ولم يكن في الاسلام موقعة أشد هولاً بين المسلمين منها الا صفين ، ولما أعيا بعضهم بعضاً أخذ بعضهم يضرب وجوه بعض بالقسي ويحثون التراب على الرؤوس

ويقول دوزى : أن بغض القيسية لليمن ، واليمن للقيسية أشد من بغض العرب والعجم ، ولقد استمرت هذه العداوة حتى آخر أيامهم فلما هاجم فرديناند وإزابلا مدينة غرناطة ، آخر حصون العرب بالاندلس كان أهلها يحاربون العدو نهارا فإذا جن الليل أخذوا يقتلون فيما بينهم ، ولو وحدوا صفوفهم ، واثلثت قلوبهم وتنهبوا للخطر الذى حاق بهم وتناشوا الاحقاد والاحن ولو فى الساعات العvisية لتغير وجه التاريخ ، ولكن هكذا كانت مشيئة الله ، ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، (٣) ومن أسباب الخذلان كذلك زواج أمراء الجيوش التى كانت تحارب الفرنجة بينات الملوك بعد أخذهم أسرى ، وكان هؤلاء الزوجات يؤثرن على أزواجهن فيتقاعدون عن القتال كما حدث من عثمان ابن أبى عصفه قائد جيوش عبد الرحمن الغافق والى الاندلس اذ تزوج عثمان ابنة دوق أكتانية وامتنع عن قتال الفرنسيين فحبسه عبد الرحمن وطلقها منه فأرسلها وغيرها من السبايا الى الخليفة هشام بدمشق وتزوج منها هشام .

لقد كان هذا السبب حتى فى العصور الاخيرة بمراكش والجزائر من أكبر العوامل التى ادت الى ضياع سلطان المسلمين ولقد صدق الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز حيث يقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر ، (٤) لما استقل الامويون بملك الاندلس انقطع ذلك المدد الذى كان يأتيهم من افريقية ومصر والشام والعراق ويلقى دماهم بالدم العربى الشرقى ، ويحمل لهم قبسا من أرض العربيه ومهدا ويبت فيهم تلك الروح الوثابة التى مكنت أجدادهم من الفتح فيجي موت قلوبهم .

ثم ان موارد الاندلس وحدها لم تكن كافية لمتابعة القتال ضد الفرنجة مع كثرتهم ، فابتدأ هؤلاء يقطعون الدولة من أطرافها حتى تمكنوا أخيرا من اجلاء العرب عنها ، وبينما كان عرب الاندلس ينفصلون عن جسم الدولة العربية الكبرى

كانت فرنسا في عهد بيبية القصير وابنه شلمان متحد وتقوى وتبسط نفوذها على من جاورها
 هـ) وباليات الامر يبقى عند هذا الحد فان اعيان الاندلس ورؤساءها اتهموا
 فرصة ضعف الخليفة في قرطبة وأخذوا يكونون دويلات صغيرة عرفوا بها فيما
 بعد وسموا بملوك الطوائف كبنى عباد باشيلية، وبنى الافطس بيطليوس، وبنى
 ذى النون بطليطلة، وبنى الاجر بغرناطة، وبنى هود بسرقة، وهكذا شاء الله
 أن يجعل هذه الامة العربية تضعف وتنحل اذا تحاذت وتمكنت من نفوس أبنائها
 النزعات الشخصية والاثرة، وتقوى وتسود اذا اتحدت كلمتها وسارت تحت لواء
 واحد وزعيم واحد. وما أشبه الليلة بالبارحة.

عمر الدسوقي

المدرس الاول بمدرسة الخديو اسماعيل

مكتبة الجاحظ^(١)

المؤلف: عبد السلام هارون

أعني بها تلك الآثار التأليفية التي خلفها الجاحظ ، زعيم البيان العربي وشيخ كتاب العرب ، وأستاذهم الأول فيما يشهد الحق .

وقبل أن نتوغل في هذا البحث ، الذي أردنا به التنويه بفضل هذا الرجل وإظهار مآلوته الأيام من براعة عبقريته نقدم له بترجمة يسيرة .

فهو أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، لقب بهذا اللقب لجحوظ عينيه جحوظا ظاهرا . وقد أكسبه ذلك الجحوظ قبحا ظريفا ، جعله أداة صالحة للتنذير والمفاكة قال الجاحظ : ذكرت للتوكل لتأديب بعض ولده . فلما رآني استبشع منظري فأمر لي بعشرة آلاف درهم . وصرفني .

وقال الجاحظ أيضا : ما أخجلني أحد مثل امرأتين ، رأيت إحداهما في العسكر وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام .. فأردت أن أمارحها فقلت : انزلي كلي معنا ! فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا .

وأما الأخرى فإنها أتتني ، وأنا على باب داري ، فقالت : لي إليك حاجة ، وأريد أن تمشي معي ! فقمتم معها إلى أن أتتني إلى صائغ يهودي فقالت له : مثل هذا اوانصرف . فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتتني إلى بنفس وأمرتني أن أنقش لها عليه صورة شيطان فقلت ياسيدتي : مارأيت الشيطان ! فأنت بك لأنقش الفص على مثالك !

والجاحظ عربي ، فهو كنان يمتد إلى كنانة بن خزيمة ، وهو حجة ضد الشعوبية الذين يزعمون أن الأدب العربي واللغة العربية لم تنهض إلا على أكتاف الموالى والفرس .

(١) محاضرة القيت في نادي دار العلوم في ٤ من مارس سنة ١٩٠٣

ولد الجاحظ بالبصرة سنة خمسين ومائة ، وتوفي بها سنة خمس وخمسين ومائتين
منحه الله عمرا طويلا ، استغله استغلالا صالحا في نصرة البيان العربي ، وإذاعة الثقافة
الإسلامية ، . فكان زعيم مدرسة أدبية تنتهي إلى الاسباب ، ولطف الاحتجاج ،
ودقة التبيين مع إشاعة الفكاهة والتهكم . وكان أيضا زعيم مدرسة دينية ، فكان رأس
فرقة من فرق الاعتزال ، عرفت بالفرقة الجاحظية .

التأليف في عصر الجاحظ

عاش الجاحظ في دهر كان يزخر بالعلوم والآداب ، هو العصر الذهبي للأمة
العربية ، عصر هارون والمأمون والمتوكل ، حين كانت معاهد البصرة وبغداد
والكوفة وقرطبة وسائر عواصم الاسلام ، تفيض بالآداب والعلوم والفنون ، وكان
المعین فياضا مترعا ، والتأليف والترجمة لها دوى شديد في كل صقع ، والعلماء
والآدباء في نشاط عجيب ، يصل الليل بالنهار والغدو بالآصال .

فعاصر الجاحظ من علماء العربية أبا عبيدة ، والأصمعي ، وأبا زيد الأنصاري
وكانوا جميعا شيوخه . وأخذ النحو عن أبي الحسن الأخفش ، والكلام عن النظام
وشافه الجاحظ فصحاء العرب الذين كانوا يقدون إلى مرید البصرة . فلقد منهم
كثيرا من فصاحتهم ، وارتشف هنا البيان العربي الصافي ، وهذه اللهجة الصحيحة .
وتلك المعرفة الفطرية القوية .

ويعرف التاريخ في عصر الجاحظ أربعة من ضربوا بسهم كبير في وفارة الانتاج
الفكري والتأليف ، واستووا على غاية قصر عنها من عدام .

قالواحد : أبو عبيدة معمر بن المثنى ١١٠ - ٢٠٩ وكان من أهل البصرة ولد وتوفي
بها . قال صاحب الوافيات : « وهاتيفه تقارب ماتى مصنف ، . وقد سرد ابن
النديم منها في الفهرست مائة وخمسة ، وقال فيه الجاحظ : لم يكن في الأرض خارجي
ولا جماعى أعلم بجميع العلم منه ، .

والثاني : أبو الحسن علي بن محمد المدائني ١٣٥ - ٢٢٥ له نحو من مائتين وأربعين
مصنفا على ما أحصيت في فهرست ابن النديم . وقد روى عنه الجاحظ في البيان
وفي الحيوان روايات كثيرة .

والثالث : هشام بن محمد السكلي الكوفي المتوفى سنة ٦٠٢ هـ ددت كتبه في الفهرس فآلفتها نحو مائة وأربعين مؤلفا .

والرابع إمام العربية والدين محمد بن إدريس الشافعي ، ولد سنة ١٥٠ هـ وهي سنة ولادة الجاحظ وتوفى سنة ٢٠٤ .

وقلت : إمام العربية ؛ لأن كثيرا من الناس لا يعلم فضل الشافعي في هذه الناحية والحق أن الشافعي كان من أدق الناس خبرة بالعربية ، وأوسعهم فقه فيها ، وإطلاعا على أسرارها وحسبك أن تعرف أن الأصمعي وهو الإمام الكبير — قرأ على الشافعي أشعار الهذليين وضبطها وصححها . وحسبك أيضا أن تطلع على كتابيه العظيمين ، وهما الآم في مسائل الفقه ، والرسالة وهي في مسائل أصول الفقه ، فتعرف إلى أى مدى وصل هذا الرجل في معرفة العربية ، ودقة التعبير العربي كذلك . وهذا ما حمل الجاحظ أن يقول فيه : « نظرت في كتب هؤلاء التبعة الذين نبغوا في العلم فلم أر أحسن تأليفا من المطلبي ، كأن لسانه ينظم الدر » .

وقد سرد ياقوت من كتب الشافعي مائة واثنين وأربعين كتابا ، منها كتب تدخل في كتاب الآم .

عاصر الجاحظ هذا الرهط ، وأدرك هذه الجماعة التي منحت الثقافة العربية ثراء وافرا ، فكان له بهم أسوة ، ونهج نهجهم الذي سلكوا . وكان ذلك إلى ما وهبه الله من امتداد العمر ، وتملك الفصاحة ، من أقوى الأسباب التي تضافرت على إنشاء مكتبة الجاحظ .. الغنية بمردها وبقيمتها الادبية والفكرية والدينية أيضا .

ومن العوامل القوية التي أدت إلى إثراء مكتبة هذا الرجل ، شدة ولوعه بالقراءة وجلده عليها . قال أبو هفان : « فأما الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط الا استوفى قراءته كائنا ما كان حتى انه كان يكثرى دكا كين الوراقين ويبيت فيها للنظر » .

وسائل النشر في عصر الجاحظ

ويعجب العاجب من وجود هذه الظاهرة الغريبة في ذلك العصر .. أعنى كثرة المؤلفات لرجل واحد . يعجب العاجب لظهور ذلك في عصر كانت وسائل النشر فيه غير متوافرة . فليست هناك مطبعة ، وليست هناك هيئات أدبية تعمل على اذاعة

المؤلفات ونشرها . ولم يكن القراء حينئذ بالكثرة التي نراها الآن .. فإلى السر إذن في ذلك ؟ .

لم تكن هناك مطبعة حقا ، تستطيع إخراج الآلاف من الكتب في وقت وجيز ولكن أمرا آخر له خطره وجليل شأنه ، كان يقوم مقام المطبعة ، وكان له نشاط لا يستهان به . ذلك هو النظام الذي كان يعرف بنظام الوراق . يتخصص به أناس معروفون ، ينقلون الكتب ويكتبونها ، ويشترونها ويشرونها ويجلدونها ، ويصحونها أحيانا .. هؤلاء الوراقون كانوا بمثابة مطابع حية تنشر المعارف في تلك العصور القديمة ، وكان لهم خطر عظيم لا يقل عن خطر هذه المطابع الحديثة في عصرنا هذا .

والذي يتصفح معجم الأدباء لياقوت ، يستطيع أن يمس عظمة هذه الدولة ، أعني دولة الوراقين ، الذين كان بينهم كثير من أعلام الأدباء والعلماء والشعراء . وبحسبك أن تعرف أن ياقوتا نفسه كان وراقا ينسخ الكتب بالاجر كما يحدثنا بذلك ابن خلكان . وكان كذلك من كبار تجار الكتب . قال يتحدث عن نفسه في أثناء ترجمة قابوس بن وشمكير : « توجهت إلى الشام وفي صحبتي كثير من كتب العلم أتجر فيها » .

وياقوت في كتابه « معجم الأدباء » ناقد صير في تلك الطائفة من الوراقين . فيقول : « هذا ملبح الخط ، متفن الضبط » ، ويقول : « هذا رديء الكتابة ، سقيم الخط » ، وبما قاله في ترجمة من يدعى الفضل بن عمر بن منصور . « وخطه في غاية الجوده ، على طريقة ابن هلال البواب . ولذا أوردناه في هذا الكتاب » . فيجعل سبب ذكره في هذا المعجم أنه وراق جيد الخط حسن الكتابة .

وحسبك أيضا أن تعرف أن ابن النديم صاحب الفهرست كان أحد أولئك الوراقين الاعلام . وأن تعرف أن صناعته هذه الجليلة هي التي يسرت له أن يخرج لنا هذا الكتاب الخالد ، الذي نرجع إليه كلما أظلمت علينا مسالك البحث في غيره من الكتب ، فنظفر منه بما يروى الغلة ويعين على التحقيق .

وأما الهيئات الادبية فكانت معروفة أيضا ، وإن لم تكن بمظهرها الحديث الذي

نلسه بين ظهرانينا . فؤلاء الوراقون الالى ذكرت كانوا من أعضاء هذه الهيئة . وكان أيضا من أشخاص الولاة والخلفاء هيئات أدبية تعمل على تشجيع نشر الكتب وإذاعتها واجازة مؤلفيها بالمنح العظيمة . والمعايا الفاشية . وكانوا ينفقون على التأليف وعلى الترجمة وسائر ضروب التثقيف العام والخاص مالا يستهان به من الاموال الطائلة . ويمتد بنا القول لو ذهينا في بيان ذلك الجود الحائمي الذي كانت تسخر به أيدي الخلفاء والولاة والسراة .

وأما أن القراء لم يكونوا كثيرين في تلك العصور ، فليس ذلك بمؤثر في ذبح الثقافة ، وانبلاج نورها بين الناس . بل نستطيع أن نقول : ان المثقفين في ذلك العصر كان عددهم يفوق عدد المثقفين في عصرنا هذا .

وقلت : المثقفين ، ولم أقل : المتعلمين ، لأن نسبة المتعلمين في عصرنا هذا أكثر عددا بلاريب من المتعلمين في عصر الجاحظ . ولكن المثقفين أعنى من توغلوا في مختلف نواحي العلم توغلا كبيرا كانوا في عصر الجاحظ أكثر عددا منهم في عصرنا هذا ، فكان هناك عبيان يفتنون في مسائل الفقه ، وكانت هناك جوار يقن الشعر ويفشين مجالس الأدب ، ويروين حديث الرسول . وكان أيضا رجال كثيرون لا يحصيهم العدد ، وتعرفهم كتب التراجم وكتب الرجال .

كان من أولئك المثقفين المنورين مشجع قوى على اثناء المكتبة العربية ، وعلى كثرة انتاج المؤلفين وكثرة انتاج المؤلف الواحد أيضا .

أسلوب الجاحظ في التأليف

سلك الجاحظ مسلكا غريبا في التأليف ، فطرق أبوابا عجيبة منه ، فهو يتحدثنا عن البجلاء ، وعن الحاسد والمحسود ، وعن تفضيل النعاق على الصمت ، ويحدثنا عن حبل اللصوص ، وعن غش الصناعات .

ويتكلم في القيان ، وفي أخلاق الكتاب ، وفي المعلمين والعفيلين والملوك والمغنين ، وأخلاق الفتيان ، رفضائل أهل البطالة .

ويتحدث عن جميع الأنواع البشرية من ترك ، وصقالبة ، وجران ، وسودان وبيض ، وعرب وعجم ، وعرجان وبرصان وحول وعور .

وعن الطوائف الدينية، كالشيعة، والزيدية والمشيبة والجهمية والمعتزلة ويذكر لنا مذاهب اليهود والنصارى والمجوس.

يتحدث عن نقض مذاهب الأطباء، وعن التفاح والنيذ والقلم والكتب، والنرد والشطرنج. يصنع في كل من أولئك كتابا. فكان الجاحظ لم يترك شيئا مما يحول بخاطر إنسان، أو يمر بذهنه، إلا كتب وأبدع إبداعا وأوفى على الغاية.

وأذكر هنا قولاً صادقا لآل العيناء.. وذلك أن سائلا سأله وقال: ليت شعري أى شيء كان الجاحظ يحسن؟ فأجابه أبو العيناء: ليت شعري أى شيء كان الجاحظ لا يحسن؟

وشيء آخر امتاز به الجاحظ من بين جمع المؤلفين في عصره، وهو ادمان الفكاهة. فهو لا يبرح يشيع الفكاهة في تصانيفه، ولا يدع فرصة تصلح للفكاهة والمطايبة إلا انتهزها انتهازا. وأنت تستطيع أن تتصفح أى كتاب أو أية رسالة له، فتجد في ذلك البرهان واضحا، والدليل ساطعا. وتعد رسالة الترييع والتدوير، التي صنعها في من يدعى أحمد بن عبد الوهاب أروع ما كتب الجاحظ في فن الفكاهة.

وكان أحمد — فيما يقول الجاحظ — مفرط القصر ويدعى أنه مفرط الطول وكان مربعا وتحسبه مدورا، وهو في ذلك يدعى السباطة والرشاقة.

يقول له الجاحظ: وهل غاية الجميل إلا وصفك، وهل زين البليغ إلا مدحك وهل يأمل الشريف إلا اصطناعك. وهل يقدر الملهوف إلا غيائك. وهل للباح رجز إلا فيك، وهل يحدو الحادى إلا بذكرك؟ لا بل أين الحسن المضممت، والجمال المفرد، والقد العجيب، والكمال الغريب، والملح المشور، والفضل المشهور إلا لك وفيك. وهل على ظهرها جميل حبيب، أو عالم أديب إلا وظلك أكبر من شخصه وظنك أكبر من علمه؟ وهل أغلت الخضراء ذاهجة أصدق منك، وهل حملت النساء أجل منك.

ويقول: وما على ظهرها خرد إلا وهي تغبر باسمك، ولا قينة إلا وهي تنقي

بمدحك ، ولا فتاة الا وهى تشكو بتاريخ حبك ولا محجوبة الا وهى تنقب الخروق
لمرك ، ولا عجوز الا وهى تدعوك ،

ويقول فى رسالة النساء : « وبعد فايما أحسن وأملح ، وأشهى وأغنىج : أن
يفنيك فخل ملف اللحية كك العارضين أو شيخ متخلع الأسنان مفضن الوجه ثم
يفنيك اذا هو تغنى بشعر ورقاء بن زهير :

رأيت زهيرا تحت كل كل خالد فأقبلت أسعى كالمجول أبادر
أم تغنيك جارية كأنها طاقة نرجس ، أو كأنها باسمينة ، أو كأنها خرطت من
ياقوته أو من فضة نجلوة — بشعر عكاشة بن محصن :

من كف جارية كأن بناتها من فضة قد طوقت غنايا
وكان يمتاها اذا تقرت بها تلقى على التكف الشمال حسابا
وللجاحظ فى البيان والتبيين من حشو الفكاهة وجمع النوادر ما اذا مررنا بعض
شواهد طال القول بنا .. وفى كتاب الحيوان مطايبات شتى ، ومتمعة طيبة للقارى .
كان الجاحظ رجلا مؤلفا متصلا بجمهور الناس اتصالا شديدا . فهو جالس
الخلفاء والوزراء والكتاب . وهو أيضا يجلس الى الباعة والكناسين والحواة
والموسوسين والمجانين . وكان يتعرف الى بداة الأعراب ، كما كان مصادقا للترك
والروم والسنديين وكان يجالس الشيوخ والمسان ، كما كان يجالس الصبيان .

روى ياقوت أن سلام بن يزيد قال يصف دخوله على الجاحظ مرة : قال سلام :
« وسألت عن منزله — يعنى منزل الجاحظ — فأرشدت ودخلت اليه فاذا هو
جالس وحواليه عشرون صليا ، ليس فيهم ذو لحية غيره . »

وواضح أن تلك المحادثة قد أكسبته معرفة كاملة بطبائع الناس ، وأطلعته على
كثير من مصادر الفكاهة .

ونستطيع أيضا أن نقول : ان الجاحظ كان صيادا ماهرا للظرفاء . واليك مثلا
من ذلك .

قال الجاحظ : كان يأتينى رجل فصيح من العجم ، فقلت له : هذه الفصاحة
وهذا البيان ! لو ادعيت فى قبيلة من العرب لكنت لاتنازع فيها .



وافرا ، وأعداهم ذلك على جمال فنهم ، ونضرة حديثهم ، وظهر عليهم فضل الجاحظ ظهورا بينا .

والأمر الرابع — الذى نلجحه فى كتب الجاحظ هو التنويع وهذا راجع إلى طبيعة الأستاذية فى الجاحظ ، التى أشرت إليها قريبا . فأخص خصائص المعلم أن يتنقل بتلاميذه كلما طال عليهم الوقت فى معارف شتى ، حتى لا يملوا درسه ويسأموا ما يلقيهم إياه من مسائل العلم أو مسائل الأدب .

وهو يقول فى ذلك : « فأتى رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتار الفصيحة ، إذا طال عليها ذلك . وما ذلك إلا فى طريق الراحة التى إذا طالت أورثت الغفلة » .

ويردد قول أبى الدرداء : « إني لأجمل نفسى ببعض الباطل ، كراهة أن أحمل عليها من الحق ما يملسها » .

ولذلك أيضا نجد الجاحظ يصطنع الاستطراد . ويستعمل التعقيب ، ويسر ذلك عجزا منه ولا التفاتا عن الغرض الذى نصب له نفسه ، وإنما ليروح عن القارى . ويستجلب نشاطه ويجدد انتباهه .

وأمر خامس هو من خصائص مكتبة الجاحظ ، وهو تناولها كثيرا من الأمور التى تبدو أنها متناقضة ، والتى تشعر القارى لأول وهلة أن ذلك الرجل يناقض نفسه فيما يكتب فهو يمدح التيزد حينما يذمه . حينما آخر ، وهو يمدح الوراقين تارة ويذمهم أخرى .

ولكن المنصف يرى أن الرجل لم يناقض نفسه ، بل نظر إلى الشيء الواحد نظرتين من ناحيتين مختلفتين . ولكل أمر من الأمور ما يقتضى مدحه حينما وذمه حينما آخر ، حتى الصدق وحتى الأمانة وهما الأساس الأول للفضائل

وكلكم يذكر قول عمرو بن الأهمم « رضيت فقلت أحسن ما علمت وغضبت فقلت أقيح ما علمت ، وقول رسول الله فى ذلك « إن من البيان لسحرا » ، وما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الثانية

وهذه الخاصة الجاحظية هي بلا ريب برهان ساطع على ذكاء روح هذا الرجل وقوة فنه وتعمق اقتداره .

وأمر سادس — تمتاز به مكتبة الجاحظ ، هو حرية الفكر ، التي لا يفتأ ينادى بها عند كل مناسبة . فهو شديد التهمك حينما يتحدث عن حجة لا يسيقها العقل ، ولا يقرها الفكر الحر . وهو يحشد أقوى ما يستطيع من الحجج حين يرض رأيا لا تحب الجاهل أو المتعلقين بأذيال الخرافات والأساطير ، فإذا الأساطير والخرافات تنهالك في يديه ، كما تنهالك الليل البهيم للصبح الطالع .

وهو كذلك يعترض كثيرين من العلماء وكبار الفلاسفة . وفي مقدمتهم أرسطو وكذلك أستاذه أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام . وكتاب الحيوان ميدان فسيح يحول فيه صاحبنا ويصول ، برأيه الحر ، ويرفع علم الثورة على المعتنقين من المفسرين والقصاص والمتزمين ، بل على المتحدثين من اللغويين والأدباء ، فهو يتدنى في الجزء الأول من الحيوان بكتب أبي الحسن الأخفش واستغلقها على الناس ، وهو يتهكم بالمفسرين وأصحاب الأخبار الذين زعموا أن أهل سفينة نوح كانوا قد تأذوا بالفأر فغطس الأسد عطسة فرمى من منخره بزوج سنابير . فلذلك السنور أشبه شيء بالأسد . وأخرج الفيل زوج خنازير . فلذلك الخنزير أشبه شيء بالفيل . ثم هو يروى سخرية أبي عبيدة من هذا الخبر ، وضحكه مما فيه من خرافة . والجاحظ أيضا يتهكم بالقصاص ، ويصور لنا صورة طريفة منهم متمثلة في شخصه أبي كعب القاضى ، حين حمل المستمعين على التمليل والتكبير لينخى أمرا مستنكرا ضاقت به نفسه ولم يستطع إمساكه .

ويروى أيضا أن أبا كعب هذا أرسل رسولا له إلى مجاس الوعظ في مسجد عتاب ، ومعه هذه الرسالة : يقول لكم أبو كعب انصرفوا ؛ فاني قد أصبحت اليوم مخورا ! .

وأمر سابع تمتاز به مكتبة الجاحظ ، هو كثرة تناول المسائل الكلامية ، والحرص على اقتناص مناسباتها في أثناء الكتب . فبينا نرى الجاحظ يفيض في الحديث عما قال العرب من شعر بديع في النار إذا به يهجم على مسألة من مسائل

يخض فيها أحد من قبل ، أو التي يحجم الناس عن الكتابة فيها ، استهانة بشأنها .
أو فرارا من التهمة فيها . ولكن الجاحظ رجل جرىء ، رجل جرىء حقا . فلم
يحدثنا التاريخ أن رجلا ألف كتابا في فيماذا ؟ في حيل اللصوص . ولكن
الجاحظ يتكلم في ذلك ويسهب في القول ويأتي بالعجب العاجب . وقد ذكر من
هذا الكتاب فصلا في الجزء الثاني من الحيوان . كما نقل الراغب الأصفهاني في
محاضراته بعض هذه الفصول ، فتعرف أن هؤلاء اللصوص كانت لهم مدرسة ، وكان
لهم أستاذ يدعى « عثمان الحياط » وكان زعيمهم . قالوا سمي بالحياط ؛ لأنه نقب
على أخدق الناس وأبعدهم في صناعة التلصص وأخذ مافي بيته . وخرج وسد النقب
كأنه قد خاطه . فسمى بذلك .

ومن أقوال عثمان الحياط لبعض أتباعه ومريديه من اللصوص : « لم نزل الأم
يسبي بعضهم بعضا ، ويسمون ذلك غزوا ، وما يأخذونه غنيمة ، ويدكرون أن
ذلك من أطيب الكسب . وأتم في أخذ مال الذر والفجرة أعذر . فسموا أنفسكم
غزاة ، كما سمي الخوارج أنفسهم شراة ! » .

ومن مأثور قول عثمان الحياط : « اللص أحسن حالا من الحاكم المرتضى ، والقاضي
الذي يأكل أموال اليتامى ! » .

وقد كتب الجاحظ أيضا في « غش الصناعات » ، قال صاحب الفرق بين الفرق
في شأن هذا الكتاب الخطير : « وقد أفسد به على التجار سلعهم » .
وغير هذين في هذا الفن كثير .

والأمر التاسع : أن هذه المجموعة القيمة من كتب هذا الرجل ، ترسم لنا صورة
طويلة عريضة من صور الحياة في العصر العباسي . هذه الصورة نرى فيها الثقافة
الفكرية في نواحيها المتعددة ، وفروعها المتوشجة . وكأن هذا الرجل لم يترك علما
من العلوم التي عرفها القوم ، ولا فنا من الفنون إلا اطلع عليه وأخذ منه بنصيب
قليل أو كثير .

وهذه الصورة أيضا نرى فيها الحياة السياسية التي كان يحياها القوم . ففي رسالته
إلى الفتح بن خاقان ، التي تتضمن مناقب الترك وعامة جند الخلافة ، يريدنا يبلغ توغل

الترك والفرس في سياسة الدولة العباسية ، ومقدار سلطانهم واعتزازهم بأنفسهم ، ويروى لنا طرفا من أمر الخوارج ويصف لنا بأنفسهم .

وهذه الصورة أيضا نرى فيها الحياة المدنية ، حتى لكأنما نعيش العباسيين ، نرى منازلهم وحماماتهم ومصاييحهم ، وملابسهم ، وطعامهم ، ومشاربهم ، وآدابهم وصناعاتهم ، ونظمهم الاجتماعية والصحية والعمرانية . وغير ذلك من دقائق الحياة التي انتبه الجاحظ إليها انتباها دقيقا ، ولا سيما في كتابه البخلاء ، الذي يعتبر بحق أصدق مصورة راسمة للعصر العباسي ، وأهم مرجع فيه .

ولا يقتصر الأمر على تصوير العراق ، فهو يصور أيضا أحوال سائر الأمم المعاصرة من الفرس والهند والصين وأهل مصر والمغرب .

لذلك كانت مكتبة الجاحظ سنداً قويا لمن أراد أن يلم بدقائق العصر العباسي ، وأن يتعرف إلى الحياة العامة فيه .

والأمر العاشر : هو اهتمام الجاحظ بتسجيل الحياة اليومية . وهو في ذلك قد ضرب الرقم القياسي — كما يقولون . فغيره من المؤلفين إنما كان جل همه أن يذكر الأخبار القديمة ، والآثار المروية ، كما كان يفعل المدائني وابن قتيبة ومن أتى بعدهم من رواة الأخبار . فهم لا يولون الأخبار المعاصرة إلا الجانب اليسير من اهتمامهم ولكن الجاحظ كان لا يفتأ يذكر أسماء معاصريه ، ويروى نوادرهم ، ويتندر بهم إذا شاء . وهو لا يدع شيخا أو شابا ، ولا عاقلا أو مجنونا ، ممن تقع له النادرة ، أو تصدر عنه الفكاهة ، أو يتصل به الخبر إلا عرض ذلك بين يدي قارئه ، وأطلع عليه إطلاعا فهو بلا ريب صحتي العباسيين ، وهو بلا ريب شيخ الصحافة العربية ، وأول من حاول إنشاء الصحف والمجلات العربية .

ذبوع كتب الجاحظ

كانت كتب تذيب وتشيع ، وتطير إلى الآفاق البعيدة في حياته للرجة الملحة فيها ولحرص الناس على ما فيها من خير كثير .
واليك صورة تنبيك عن مبلغ هذا الذبوع ، وتقف بك على مقدار

روى صاحب تاريخ بغداد عن يحيى بن علي أنه قال : « حدثني أبي قال : قلت
للجاحظ : إني قرأت في فصل من كتابك المسمى كتاب البيان والتبيين إن مما يستحسن
من النساء اللحن في الكلام واستشهدت ببيت مالك بن أسماء :
وحديث أذه هو مما ينعت الثاعنون يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا . نا وخير الحديث ما كان لحنا
قال : هو كذلك . قلت : أفأسمعت يخبر هند بنت أسماء — وهي أخت صاحب
هذين البيتين — مع الحجاج حين لحن في كلامها فعاب ذلك عليها فاحتجت بيت
أخيها ، فقال لها الحجاج : إن أخاك أراد أن المرأة فطنة فهي تلحن بالكلام إلى غير
المعنى في الظاهر ، لتستر معناه وتورى عنه ، وتفهمه من أرادت بالتمريض ، كما قال
الله تعالى : « ولتعرفنهم في لحن القول » ، ولم يرد الخطأ من الكلام . والخطأ لا يستحسن
من أحد . فوجم الجاحظ ساعة ثم قال : « لو سقط إلى هذا الخبر لما قلت ما تقدم
فقلت له : فأصلحه . فقال آلآن وقد سار الكتاب في الآفاق . هذا لا يصلح !
فهذه صورة من صور ذيع كتب الجاحظ .

تقدير القدماء لكتب الجاحظ.

ترك القول لياقوت يحدثنا حديثا عجبا في هذه الناحية ، فهو يروى أن أبا حيان
قال : « ومن عجب الحديث في كتبه ما حدثنا به علي بن عيسى النحوي الشيخ الصالح
قال : سمعت ابن الاخشاد شيخنا أبا بكر يقول : ذكر أبو عثمان في أول كتاب
الحيو أن أسماء كتبه ليكون ذلك كالفهرست ، ومر بي في جنتها : الفرق بين النبي
والمثني وكتاب دلائل النبوة ... فأحيت أن أرى الكتابين ولم أقدر على واحد
منهما وهو كتاب دلائل النبوة ... فمعنى ذلك وسام في سوء ظفري به . فلما شخصت
من مصر ودخلت مكة — حرسها الله — حاجا ، أقمت مناديا بعرفات بنادي —
والناس حضور من الآفاق على اختلاف بلدانهم وتنازع أوطانهم ، وتباين قبائلهم
وأجناسهم من المشرق إلى المغرب ، ومن مهب الشمال إلى مهب الجنوب ، وهو المنظر
الذي لا يشابهه منظر — : رحم الله من دلنا على كتاب الفرق بين النبي والمثني
لأبي عثمان الجاحظ على أي وجه كان !

قال : فطاف المنادى في ترابيع عرفات وعاد بالحبيبة وقال : حجت الناس منى ولم يعرفوا هذا الكتاب ولا اعترفوا به .

قال ابن الاخشاد : وإنما اردت بهذا ان ابلغ نفسى عذرها . قال ياقوت : وحسبك بها فضيلة لابي عثمان ان يكون مثل ابن الاخشاد وهو من هو في معرفة علوم الحكمة ، وهو رأس عظيم من رؤوس المعتزلة يستهان بكتب الجاحظ حتى ينادى عليها بعرفات والبيت الحرام . قال ياقوت : وهذا الكتاب موجود في ايدي الناس اليوم لانكاد تخلو خزانه منه . واقد رايت انا منه نحو مائة نسخة او اكثر . ثم نعود إلى المسعودى — وهو من يعد في خصوم الجاحظ — فنجده يقول في نعت كتب الجاحظ : « وكتب الجاحظ مع انحرافه المشهور تجلج صدا الأذهان وتكشف واضع البرهان ؛ لأنه نظمها احسن نظم ، ورصفها احسن وصف ، وكساها من كلامه اجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسأمة السامع خرج من جد الى هزل ، ومن حكمة بليغة الى نادرة طريقة . وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو اشرفها ؛ لأنه جمع فيه بين المشور والمنظوم ، وغرر الاشعار ، ومستحسن الاخبار ، وبلغ الخطاب ما لو اقتصر عليه مقتصر لا كفى به ، وكتاب الجيوان ، وكتاب الطفيليين والبخلاء . وسائر كتبه في نهاية السكال ، ما لم يقصد منها الى نصب او إلى دفع حق » .

ثم تراجع إلى الوراء ونسأل الجاحظ نفسه أن يحدثنا حديث الصدق عن كتبه ونظرة الناس اليها ، فإذا هو يجيبنا في ثقة ويقين واعتزاز بالنفس . قال في الجزء الثاني من البيان :

« ولما قرأ المأمون كتبى في الإمامة فوجدتها على ما أمر به ، وصرت اليه — وكان قد أمر الزيدى بالنظر فيها ليخبره عنها — قال لى : قد كان بعض من ترتضى عقله ونصدق خبره ، خبرنا عن هذه الكتب بإحكام الصنعة ، وكثرة الفائدة . فقلت : قد ترى الصفة على العيان فلما رأيتها رأيت العيان قد أرى على الصفة . فلما فليتها أرى الفلى على العيان . كما أرى العيان على الصفة » .
وهذه شهادة تاريخية جلية . لها قيمتها ولها قدرها .

عدد كتب الجاحظ

والآن ننتقل الى الحديث عن عدد كتب الجاحظ . فنجد أن هذا الرجل قد خرج عن زهاء ثلثمائة وستين مؤلفا . في ألوان شتى من المعرفة . رأى أكثرها في مشهد أبي حنيفة النعمان ببغداد سبط ابن الجوزي المتوفى سنة ٦٥٤ . قال في كتابه « مرآة الرمان » عند ذكر الجاحظ : « أما مصنفاته فثلثمائة وستون مصنفًا . ووقفت على أكثرها في مشهد الإمام أبي حنيفة » . هذا أقصى تقدير عددي وصلت اليه كتب الجاحظ . على أن أدنى ما تنزل اليه أن تكون مائة ونيفا وسبعين كتابا قال ابن حجر في لسان الميزان : « وسرد ابن النديم كتبه ، وهي مائة ونيف وسبعون كتابا » هذا آخر كلام ابن حجر . ووجدت ياقوتنا في معجم الأدباء قد سرد منها مائة وثمانية وعشرين مصنفًا . وليس يمكننا القطع برقم خاص لعدد كتب الجاحظ . ولكن نستطيع أن نقول : إن الجاحظ كان من اخصب علماء عصره وادبائه اتاجا أن لم نقل انه اخصهم واغزرهم فيضا !

ويسأل السائل : اين طوح الدهر بهذه المجموعة الجاحظية الهائلة ؟ وكيف لم يظهر للناس منها الا مقدار يسير تعدده اصابع اليد ؟

فالحنق ان كثيرا من كتب الجاحظ قد ضاع فيما ضاع من آثار السلف ، وعدت عليه عوادي الأيام والناس ايضا .

فالفوضى السياسية التي منيت بها الأمم الاسلامية في مناساتها الأولى والتي كانت قائمة في أكثر ما تقوم على التدمير والتخريب والانتقام من غزوات السلاجقة والتتار وغيرهم — جعلت تهدم في هذا الصرح الفكري حتى اتت على الكثير من قواعده ، ولم تبق إلا وشلا من محيط

- وكذلك كان لنهود الهمم وضعف العزائم اثر كبير في ضياع هذه النفائس وفقدائها .

ومهما يكن فقد ابقت الأيام لنا من آثار هذا الرجل مقدارا صالحا ، سار

بعضه بين الادباء ، فكان له فضل عظيم في تقويم السنتهم وتأديبهم ، وحث بعضه الآخر خزائن متناثرة في انحاء المعمورة ، اشار اليه المستشرق الكبير د بروكلمان ، في معجمه . وهي اكثر من سبعين كتابا ، تزدان بها خزائن المتحف البريطاني ، وداماد ابراهيم ، وكوبريلي ، والفتاح والموصل ، وجوتا ، وميلانو ، وغيرها .

وقد أخذت على نفسي عهدا ان اقوم بخدمة هذه المكتبة وبدات منها بكتاب الحيوان ، وعسى الله ان يهب لي من سعة الوقت والجال مايسعني باستحضار هذه الكتب ونشرها بين ابناء العربية نشرنا عليها صالحا ، وفاء لهذا الرجل العالمى العظيم ووفاء لهذه الدار التي حجب إلى اساتذتها ادب الجاحظ فصرت إلى ان اولع به ولوعا ، واغرم به غراما .

واشكر جماعة دار العلوم لما اتاحت لي من هذه الفرصة السعيدة واهنتها بهذه النهضة الثقافية في عهدها الجديد ، الذي يذكى شعلته سعادة رئيسها وحضرات اعضائها الاجلاء .

عبد السلام هارون

المدرس بمدرسة الظاهر

« مشكلات »

المؤسس زكي المهندي

وأخيرا قضى الأمر وأصبحت مرة أخرى في قبضة مدير الصحيفة وهو — كما نعلم جميعا — قاس في الحق لا يرحم وصلب في الجدل لا يلين. ومن قبل كنت كثيرا الافتتان في المراوغة والاحتيال والزوغان، أبدو ثم أخفى وأبدأ ثم لا أنتهى واعد ثم أخلف ولكن ماحيتلى اليوم وقد نصب مدير الصحيفة حولي شبا كدوحاطنى بحياته واستطاع في حذق دبلوماسى بديع أن يحمل مجلس الجماعة على أن يقرر أن اكتب في الصحيفة وأن يكون لى مقال فى كل عدد ١١ وارحمته لقرار الصحيفة أين المهرب اليوم وسيف المجلس وصلت فوق رأسى وسوط مدير الصحيفة يلهب ظهرى ١٤ إذا لابد أن اكتب في الصحيفة ولا بد أن يكون لى فى كل عدد مقال ولا بد من أن أصطنع بحثا يشوق القراء ولا بد — فوق هذا وذاك — من أن أقدم بحثى فى موعد مضروب لأشد فيه ولا أتخلف عنه ولا تشفع فيه معاذير ولا يجدى فيه احتيال، حتى لقد فكرت فى سبيل امتداد الأجل المعين للقال فى أن أرشو مدير الصحيفة بكموب من الشاى ولكن أخوف ما أخافه أن يستجيب لدعوى وبعد أن يأكل مريثا ويشرب هنيئا يذكرنى بهذا الموعد المضروب ويأبح فى طلب المقال على أنى لا أكتب قراء الصحيفة أنى بدأت أنشط من أجل الصحيفة واضحى فى سبيل الصحيفة ولم يكن منبعث هذا النشاط وتلك التصحى قرارا لمجلس أو قرارا من لوم أو التماسا لحسن أجدوة وإنما كان صديقى محمد على مصطفى نفسه هو مصدر هذا النشاط والتصحى حقا أن ، محمد على ، يضرب لنا أروع مثل فى النشاط والتصحى فأنت إذا رأيته يتعقب الكاتبين ويستنهض مهمهم لتغذية الصحيفة ، وأنت إذا رأيته يقضى الشطر الأكبر من وقت فراغه فى قراءة كلمات الصحيفة ، وأنت إذا رأيته يقوم بهذا كله فى صبر لا ينفد وعزيمة لا تقتر لا يسمك إلا أن تشعر فى قرارة

نفسك بالأعجاب والخيال ولا يسمعك خيال هذا إلا أن تلبى نداء الواجب وتهض
لخدمة الجماعة . حقا - أيها الاخوان - ليس في وسع امرئ يرى أمثال محمد علي
مصطفى في نشاطه وحيويته وتضحيته من أجل الجماعة ثم يتراخى إذا طلب إليه العمل
أو يرضن إذا كلف البذل .

و بعد ، فإذا عساني أن أكتب في الصحيفة ؟ إن ذا كرتي تعج بموضوعات
مختلفة متنوعة تتوارد كلها في وقت واحد حتى لتسد على مسالك التفكير وتكاد
تشل قلبي عن الكتابة ولعل اختيار الموضوع اشق من الكتابة فيه ولكنني على
كل حال مازلت أومن بأن أجدى الموضوعات على المعلمين هي تلك التي تتصل
اتصالا مباشرا بأعمالهم والتي قد يجدون فيها بعض الهدى والرشاد في تذليل
ما يواجههم من مشكلات وما يقوم في طريقهم من صعاب أما ماسوى ذلك من
موضوعات عامة أدبية أو اجتماعية فهي عندي في المرتبة الثانية .

وأنا لأقول جديدا حين أذكر أن مدرس اللغة العربية من ناحية عمله الفني
قد أصبح في منزلة لا يحسد عليها إذا قيس بزملائه من مدرسي اللغات الأخرى . ذلك
أن عملية التدريس في اللغة العربية ما فتئت تقوم على أساس الارتجال ليس له سند من
علم ولا ظهير من تجربة معينة محدودة ولا تأييد من إحصاء على مضبوط . ان
مناهجنا الدراسية وكتبنا المقررة وأساليب تعلمنا ونظام تفقيشنا كل أولئك يقوم
على الارتجال ولا شيء غير الارتجال ، أنها تقوم على آرائنا الشخصية وأفكارنا
النظرية وملاحظاتنا العامة حقا أن ذكنا المجرى يلعب دورا هاما في توجيه التعليم
في اللغة العربية . وكل عمل يقوم على مثل هذا هو السر في أننا حتى اليوم لم نثبت
على حال ولم يستقر لنا قرار . فالفتشون قلقون والمدرسون ناقون والطلبة بين هؤلاء
وأولئك كارهون أن يفيدوا من اللغة العربية إلا بالقدر الضروري الذي يعينهم
على اجتياز الامتحان . واللجان في الوزارة تؤلف ثم تنفض والقرارات تبرم ثم
تنقض والتعليمات تصدر ثم تنسخ والمناهج توضع ثم تعدل وأساليب التدريس
تقترح ثم يتنازع فيها ويختلف عليها ، وليس هذا كله بمعجب فلك طبيعة كل عمل

يقوم على الارتفاع .

انك لاتجد شيئا من هذا في أعمال مدرسي اللغات الأخرى فقد وضعت بين أيديهم جميع الوسائل التي تعينهم على القيام بأعمالهم في شئ من الاستقرار والطمأنينة والثقة . ان سبل العمل أمامهم مفتوحة وطرقه معبدة وغايته جليلة واضحة أن لديهم أنواعا من الكتب يضيق دونها الحصر وكلها فائنة شائقة محبة إلى نفوس النشء . وقد قصد بها مؤلفوها إلى غايات لغوية فنية محدودة . إن لديهم أساليب في التدريس وصل إليها وأضعوها بعد دراسات علمية عميقة ثم قدموها إلى مدرسينا جاهزة رخيصة . ان لديهم نوعا من التفتيش يجري على أسلوب مرن سهل ولكنه وليد دراسة أحكمتها التجربة وصقلها طول الاختبار . كلنا يعرف أن تعليم اللغة الانجليزية مثلا يجري في جميع معاهدنا على طريقة (وست) ولكن هل غاب عنا كيف أدخلت هذه الطريقة في مدارسنا المصرية ؟ وهل نسينا تلك التجارب الرائعة المنظمة التي كانت تجري تحت رعاية مس (كارتر) وسواها من كبار المفتشين والمفتشات في بضع مدارس للبنات ؟ هل عذب عن أذهاننا تلك البحوث القيمة التي تناولت طريقة (وست) بالتغيير والتحوير والصقل قبل أن تفكر الوزارة في تعميمها في جميع المعاهد ؟

فإن تدريس اللغة العربية من هذا كله ؟ ان بين أيدينا مشاكل جملة ولكن اعجب العجب أن كثيرا منا لا يحسون هذه المشاكل ولا يدركون أثرها في أعمالهم بل أن يفتننا عددا من المدرسين يؤمنون بأننا قد أوفينا على الغاية في تدريس اللغة العربية وأنه ليس في الامكان أبدع ولا أروع مما كان ولكن صدقوني — أيها الاخوان — حين أقول لكم أن عملنا في المدارس وبخاصة المدارس الثانوية ملئ بالمشكلات خافض بالصعاب مخوف بالمكاره ، وأنه بالرغم من تلك الجهود الجبارة الموفقة التي يبذلها المدرسون في الوقت الحاضر مازلنا بعيدين كل البعد عن أدنى مراتب الكمال ، وأنه إذا أريد للغة العربية أن تبلغ ما يجب أن تبلغه من نفوس الأحداث والشباب وان تملك زمامهم وتستهوى عقولهم وقلوبهم فلا بد من أن نضع مسألة التعليم برمتها موضع البحث والدرس والتجربة .

وبما يدعوننا جميعا إلى الاغتراب وبيعث في نفوسنا الطمأنينة أن رجال التعليم وأولى الأمر في الوزارة قد بدءوا يدركون شيئا من وجوه المشكلات التي تواجهنا في تعليم اللغة العربية ، وأصبحوا يعترفون بأن التبعات التي ألقتها الأقدار على كواهلنا في حياتنا الجديدة هي أشق التبعات في أعمال التعليم كلها ، فلا يسع أحدا بعد اليوم أن يحدد مايقوم به المدرس من أعباء تكاد تقصم ظهره وتهديكيانه وتسلبه راحته ووقت فراغه .

حقا ان رجال الوزارة قد أصبحوا يقرون لنا بهذا كله ولا ريب في أن لنا فيه بعض الغراء عما نكابد في عملنا من عناء وما نلقى فيه من مشقة غير أنهم يكادون يجمعون أيضا على أن الأثر الذي تتركه في نفوس تلاميذنا ماقى- ضئيلا لا يتناسب وتلك الجهود التي نبذلها والأعباء التي تنمض بها . وليس لهذا من تعليل سوى الافتراض بأن أداة التعليم محتلة معتلة في بعض نواحيها فهل المناهج الدراسية أو أساليب التعليم أو كفاية المدرسين أو استعداد الطلبة أو سوء التوجيه في التفهيش هل واحد من هذه أو بعضها أو كلها مجتمعة هو موطن الداء وأصل العلة ؟ هذه هي المسألة التي يجب أن نكشف عنها بالبحث والدرس وأن نعالجها بما هو خليق بها من تغيير أو تبديل على شريطة أن يجرى هذا كله عن طريق التجربة المنظمة والاحصاء العلمي الدقيق .

ان في وزارة المعارف لجنة مؤلفة للنظر في اصلاح اللغة العربية وقد تناهى اليها من أنبيائها أنها تعنى ببحث مسألة التعليم في مجملتها ، وأنها استعرضت فيما استعرضت جل المشاكل التي تواجه المعلم في الوقت الحاضر وأنها في سبيل ذلك قد دعت إليها جمعا حاشدا من المدرسين والمفتشين تحدث إليهم وسمعت منهم كل هذا حسن وكله يبعث في نفوسنا الاغتراب ويفسح في صدورنا الأمل فلاشك عندى في أن اللجنة واصله بعملها إلى نتائج سيكون لها أثرها البعيد في عمل المدرس والتلميذ كليهما ولكن مقتنع كل الاقتناع بأن اللجنة لا تستطيع أن تضمن دوام الأثر لقراراتها إلا عن طريق التجربة والاختبار . فليجرب ماتراه اللجنة من آراء وماتصل اليه من نتائج تجريبها عليها منظما في مدرسة أو اثنتين وليجر هذا التجريب بواسطة عدد ممتاز من المدرسين وتحت رعاية

ما بنفعل بنركيب المجرز

لوحظ هنا أن الجمل بوجه عام في تطورها تميل إلى ما يمكن أن يسمى بالتحليل واستغلال عناصر الجملة ، وانفصالها بعضها عن بعض . ففي اللغات القديمة تكونت الوحدة اللغوية في الجملة من عناصر متعددة لوحظ أنها مع مرور الزمن تنفصل وتكون وحدات مستقلة . فأمثال تلك العبارة التي وردت في القرآن « أنزلهموها ، التي تشتمل على ستة عناصر (أداة الاستفهام + فعل + اسناد إلى المتكلمين + ضمير المفعول للمخاطبين + واو الاشباع + ضمير المفعول للمفردة) لا تنكاد توجد في اللغات الحديثة بل يغلب أن يعبر عن معظم العناصر السابقة بوحدات لغوية مستقلة . وما يقال في « أنزلهموها ، يقال أيضا في « فسيكفيكم » ، والأمثلة التي يوردها المحدثون لتوضيح ما تقدم من اللغات الحديثة الأوروبية لاحصر لها ولكنني أكتفي هنا لضيق المقام بذكر قليل من الأمثلة من اللغات السامية .

كذلك لاحظ المحدثون أن اللغات بوجه عام في تطورها تميل إلى الاطراد والقياس . فالتعبير عن التأنيث والتذكير كان في لغات ما قبل التاريخ بكلمات خاصة بالمؤنث وأخرى بالذكر . وبقياء هذا لا تزال في اللغات الحديثة أمثال « أب ، مؤنثه وأم ، « حسان ، مؤنثه « فرس ، وهكذا . وأمثلة الصيغ السماعية في اللغة العربية معروفة لاحتياج إلى بيان . كما أن المسند إليه في اللغة العربية يختلف موضعه في الجملة فأحيانا يسبق الفعل ويسمى مبتدا وأحيانا يليه فيسمى فاعلا ووظيفته في الحالين هي هي . فإذا قارنا هذا بلغة الكلام عندنا الفينا موضعا واحدا للمسند إليه يطرد هذا الموضع في كل جملة . ولغة الكلام ليست إلا تطورا للغة العربية .

من كل ما تقدم وصل المحدثون إلى قانون عام للتطور اللغوي هو : « تميل اللغات بوجه عام في تطورها إلى التقليل من المجهود العضلي في نطق الأصوات وإلى فصل عناصر الجملة وقلة الأوزان والاطراد » .

أما من ناحية المفردات فقد لوحظ أيضا أنه كلما تقدمت اللغة كانت أقدر على المعنويات . والعلماء يسوقون هنا أمثلة لاحصر لها في عليه مفردات اللغات في

ثلاثة أو أربعة من صفوة المفتشين وعلى ضوء النتائج في هذه التجارب نرتب أعمالنا ونفرضها على المدرسين جميعا ليأخذوا بها . هذا هو الأسلوب العلمي المنظم للبحث في كل ضروب الإصلاح في التعليم وفي غير التعليم .

أجل — أيها الاخوان — لقد خان الوقت لأن نذكر أن هذا العصر الذي نعيش فيه هو عصر تجربة واختبار واحصاء وأنه لاستقرار لنظام ولا بقاء لعمل ولا دوام لمقترح مالم تكن دعائمه التجربة المنظمة والاحصاء العلمي المضبوط وتعليم اللغة العربية ليس بدعا فيجب أن يخضع لما يخضع له كل ضروب الإصلاح إذا أردنا أن يكون الإصلاح في اللغة العربية أصلا مستقرا ثابتا يقنع المدرسين وتطمئن اليه نفوسهم .

لقد قلت وما زلت ألح في القول بأن بين أيدينا مشاكل جمة لا يفتى في حلها الذكاء المجرد والآراء النظرية والتجارب أو الملاحظات العامة بل لابد فيها من التجريب المنظم ولو طال وقته واتسع مداه فكلنا نعتقد أن تدريس البلاغة مثلا على الصورة التي يجرى عليها حتى الآن ليس فيه غناء وأنه إذا أريد أن يتذوق الطلبة الأسلوب العربي وأن يدركوا مافيه من روعة وجمال وجب أن تتجه هذه الفنون الأدبية اتجاها جديدا يكفل تحقيق الغاية منها .

وكلنا يحس أن الروابط بين مطالعة التلاميذ ومحفوظاتهم من ناحية ومنشآتهم من ناحية أخرى مفككة منحلة فالمادة اللغوية التي ينهلها الطالب من كتب المطالعة والنصوص والمحفوظات تظل راكدة ميتة لأنها بعيدة كل البعد عما يكتب فيه وقد تكون هذه المادة — في أحسن الحالات — مادة قيمة واسعة ولكنها كالجمهرة المطروحة المحفورة في جوف البحار لا يستفاد منها ولا يفتفع بها فاذا كتب الطالب نزل بأسلوبه إلى فهاهة العامة أو قريبا منها ومن ثم وجب أن نفكر في خطة جديدة تقوم على توثيق الروابط وتأكيد الصلات بين دروس المطالعة والمحفوظات والانشاء إذا أريد أن يستفيد الطلبة عما يقرءون ويستظرون بحيث يتجلى أثره في كتابتهم .

ولقد أصبحت مسألة التصحيح في الانشاء كذلك أعقد العقدة واحدي الكبر في

تدريس اللغة العربية فكلنا يعلم أن تصحيح الانشاء أشق واجب في أعمال المدرس بل أشق واجبات التعليم كلها فلو أن مدرسا أضيف إلى جدول حصص بقدر ماله من كراسات على أن يعنى من هذا التكليف الشاق لكان من المحتمل أن يقبل هذا راضيا مسرورا فهل هناك من المدرسين من يطالبني بدليل على أن تصحيح الكراسات عمل يستفرغ جهد المدرس ويستغنى حيويته ونشاطه ويحطم من أعصابه ويهد من كيانه ، أنه عمل يكسد الذهن ويقض المضجع ويسلب الوجوه بشاشتها ومرحها والعقول اتزانها وصفاءها ، ولكنه في الوقت نفسه أهون الأعمال شأنا في نظر التلاميذ وأقلها فائدة لهم وأضعفها أثرا في تقويم المعوج من عباراتهم وتصحيح الفاسد من أفكارهم وأخيلهم . حقا ان هذا العمل الشاق الذى يشغل جميع وقت المدرس وينغص عليه حياته لا يعدو أن يكون في نظر التلاميذ عملا آليا هينا لا يعينهم منه إلا ذلك الرقم الأحمر يتناولونه سراعا بأطراف الحافظهم ثم يطوون الكراسات طيا ويقذفون بها في أجواف قاطرهم . فإذا فعلنا حيال الانشاء وتصحيح الكراسات ؟ هل فكرنا في خطة واضحة مثمرة تخفف من هذا العبء عن المدرس وتضمن فائدة جوهرية للتلميذ ؟ وهل زاد عملنا في الانشاء وتصحيح كراسات على أن قدمنا في سبيله الضحايا وقربنا القرابين كما كان يصنع قدامى اليونان مع إله الحرب والضرب والانتقام ؟ ولكن هل استفاد الانشاء من عملنا هذا شيئا يذكر ؟ وهل استطعنا أن نحل عقدة في السنة التلاميذ أو نمنحو حبة عن أفلامهم أو نعالج خطا في أحكامهم أو نصحح فاسدا في أفكارهم أو نحذبا في خيالهم ؟ أرايت لو أن مدرسا تناول قلبه الأحمر وأخذ يصول به ويجول بين السطور فلم يدع كلمة نائية إلا غيرها ولا همزة قطع أهملت إلا سجلها ولا عبارة ركيكة إلا أقام أودها وأحكم نسجها ولا فقرة مهلهلة إلا قوى روابطها وهذب حواشيتها ولا فكرة خاطئة إلا سددها معانيها ووضح مراميها لو أن مدرسا صنع هذا كله فيما بين يديه من كراسات أكان هذا يقدم أم يؤخر في قدرة التلاميذ على الكتابة ؟ لا — أيها الأصدقاء — إنى لأزعم أنه ليس بيننا رجل واحد يعتقد جادا أن العناية بتصحيح الكراسات — أيا كان مبلغ هذه العناية — من شأنها أن تجعل أفلام التلاميذ أوضح بيانا وأستنتهم أفصح مقالا ذلك أن القدرة

الأمم الأولية في وسط أفريقيا وجنوبها مثلا . كما انه كلما تقدم الزمن باللغة قلت فيها المترادفات التي تعبر عن المحسوسات . وقد ملئت كثير من اللغات القديمة التي رواها لنا التاريخ بعشرات من الكلمات المترادفة مما يجعلنا نرجح أن لغات ما قبل التاريخ انتظمها طوفان من تلك المترادفات ورغم هذا قصرت عن التعبير عن كثيرا من المعاني التي دعت إليها حياة المدنية . وقد ترتب على هذا ان كثيرا من الكلمات المحسوسة التي كانت تخاطب القلب قبل العقل اخذت ثوبا معنويا وبهذا أصبح التعبير عن الفكر عملا آليا أو شبه آلي لا يميل كثيرا إلى الناحية الشعرية من اللغة . ولهذا سبقت اللغة الشعرية لغة النثر عما جعل العلماء يصورون لنا لغات ما قبل التاريخ أقرب إلى الشعر منها إلى النثر مخلوعة بألوان المجازات والاستعارات . وقد ايدى هذا الرأي ما يشاهد الآن بين لغات الأمم الأولية .

نشأت اللغة إذن في صورة كغناء الطيور وضجيج الحيوان وصياح الأطفال كانت تصدر عن الانسان لا لا يصال افكاره لبني جنسه بادية الامر بل للترفيه عن دافع نفسى يجعله يصوت دون ملاحظة لما حوله من بني جنسه ثم تطورت الى غناء أو ما يشبه الغناء في جعل مملوءة بالاصوات قليلة المعاني أو مجردة عنها ، جعل معقدة العناصر لا كوسيلة للتفاهم بل لترين عضلات الصوت لمجرد التسلية . فلما بدأ الانسان يستخدم تلك الاصوات التي ظل يلهم بها زمنا طويلا في التفاهم مع غيره بدأ بهذا ما نسميه لغة .

ولكن كيف انتقلت تلك الاصوات التي لا معنى لها والتي لم يقصد بها إلا مجرد التسلية الى مرحلة المعاني فانتقلت كل منها معنى ؟ الكلمات التي نلاحظ فيها رابطة بين صوتها ومعناها تفسر لنا جزءا ضئيلا من مادة اللغات ولكنها تعجز عن تفسير الجزء الأعظم منها . فلنبحث إذن في الكلمات التي نلاحظ فيها رابطة بين المعنى والصوت . اننا اذا علمنا ان الكلمات الاولى كانت اميل الى المحسوسات استطعنا ان نتصور أن أول ما اتخذ معنى هو تلك الكلمات الأعماق في المعاني الحسية . وهذه من غير شك هي أسماء الأعلام . ونحن نعرف من المراحل التاريخية للغات كيف سهل تحول الأعلام الى كلمات عامة تعبر عن معنى عام .

فالأصوات التي صدرت عن الجماعات الانسانية الاولى ربطت بالعمل الجمعي

على الكتابة والتحرير لاتصل بالتصحيح إلا برباط واه ضعيف وان شئت فقل ان تصحيح الكراسات لا يعدو أن يكون توجيها لهذه القدرة لاسبيا لها كما يعتقد كثير من الزملاء الأفاضل وأشعر بأننا قد ضحينا بالأسباب الحقيقية لتكوين هذه القدرة في التلاميذ في سبيل العناية بتصحيح الكراسات حسبك أن تنعم النظر في الكراسات ترى أنه — بالرغم من هذا الجهد الشاق المضني الذي يبذله المدرس في التصحيح — يكاد يكون أول موضوع يتدى به الطالب كآخر موضوع ينتهي اليه وان مادة الطالب لا تزيد على بضع مئين من ألفاظ وعبارات عادية تتكرر في كل مقال وتبدو في كل موضوع .

وأعود فأقول ان تعليم الانشاء أو تصحيحه قد أصبح عقدة العقد ومشكلة المشكلات في تعليم اللغة العربية فقد كان التصحيح عملا شاقا حسب ولكنه قد أضحى اليوم عملا رهيبا مخوفا مخفوقا بالمكاره لأننا نلج فيه ما يمكن أن ينظرنا من تنزيل أو تشريد فهل من سبيل إلى الحل ؟ ذلك ماسأجاوله في الأعداد التالية فيال اللقاء .

نكي المهندس

وكيل دار العلوم

نشأة الكلام

للكنوز ابراهيم انيس

منذ أحس الانسان أن له أصواتا يتخذها وسيلة للتعبير عما يجول بخلدّه ولا يصال أفكاره وخواطره إلى غيره من بني جنسه وهو يسانل نفسه كيف نشأت تلك الأصوات ونمت حتى تكون منها ما يسمى باللغات ! فليس عجيبا إذن أن تروى لنا في ثنايا كتب التاريخ والأدب محاولات في هذا الشأن لفلاسفة اليونان ثم من بعدهم بقرون عدة لمؤلفي العرب من أهل اللغة .

وتبدو المسحة الدينية أو بعبارة أدق يبدو أثر ماورد في الكتب المقدسة في تلك المحاولات القديمة . فقد توسع هؤلاء وهؤلاء في تفسير آيات من التوراة والقرآن إشارة إلى نشأة اللغة الانسانية وجعلوا من تلك الآيات أساسا لنظرياتهم . ولن أعرض هنا لرأى من أسسوا نظرياتهم على أدلة نقلية مصدرها الكتب المقدسة لأن ما استندوا إليه يحتمل تأويلا وتفسيرا يمكن أن يتفق مع اتجاه العلماء في أيامنا هذه .

ولما جاء القرن التاسع عشر شهدت البحوث اللغوية فيه عصرا زاها . وكان بين تلك البحوث بل كان أكثرها تشويقا وجاذبية للنفس البحث في النشأة اللغوية .

وليس بين البحوث اللغوية ما نال من وقت العلماء وجهودهم مثل البحث في نشأة اللغة فقد عالجّه عدد كبير منهم في مجلدات ضخمة لم تنتج لنا آخر الأمر إلا أراء قابلة لنقد كثير . وأدى هذا إلى أن كثيرا من العلماء انصرفوا عن البحث في هذا الموضوع .

وقبل أن أعرض إلى الاتجاه الحديث بين علماء القرن العشرين حول هذا

نفسه وصارت كعلم له تكرررت كلما تكرر العمل نفسه أو وجدت ظروف مماثلة. فإذا تصورنا أن جماعة إنسانية في عصر نشأة اللغة قتلوا حيوانا ففترسا مثلاً. وفي لحظة احتفالهم بهذا التصرف ردّدوا في شكل جمعي أصواتاً خاصة أصبحت تلك الأصوات علماً على هذا الحادث تتكرر متى تكرر الحادث نفسه أو شبيهه وينتقل هذا المعنى إلى غير هذه الجماعة كما تنتقل معاني الكلمات إلى أطفالاً حين يسمعون الصوت بمن حولهم ويرون ظروفه فيربطون بين الأصوات ومدلولاتها التي فهموها بما أحاط بالعمل من ظروف. وقد يخطئون الفهم فينشأ تغيير في الأصل ربما انتقل بالصوت إلى معنى آخر أو معنى قريب منه وهكذا.

نشأت اللغة إذن كتعبيرات شبه مفنّاة ليست محلّة إلى عناصر وقد وصفت بها حوادث خاصة. ومثل هذه التعبيرات بدأت مستقلة بعضها عن بعض وكوحدات كلامية تشبه الجمل ولكن غير كافية للتعبير عن الفكر ثم تطورت فتحلّت عناصر جملها واتصت الوحدات الكلامية بعضها ببعض ومالت أخيراً إلى الوضوح والاطراد ولكن لم تصل بعد لغة من لغات العالم إلى مستوى الكمال الذي ينشده عالم اللغة. فالمثل الأعلى للغة هو تلك التي تصور نفس المعنى بنفس التعبير أو ما يقرب منه في اطراد ووضوح ومع انسجام بين المعاني والأصوات وسهولة في التعبير عن كل دقائق المعاني في الحياة.

ابراهيم أنيس
المدرس بدار العلوم

الموضوع المعقد الذى يبدو أحيانا مستحيلا أورد أن أشير هنا فى اقتضاب إلى تلك النظريات المختلفة التى جاء بها علماء القرن التاسع عشر . ولشهرتها فى معاهدنا العلمية ، ومعرفة كثير منا بها أرى ألا أعرض لها بتفصيل أو تحليل لأنها أصبحت فى عداد النظريات التى يجب أن نذكر فقط كحلقة من حلقات تاريخ البحوث اللغوية . وأشهر نظريات القرن التاسع عشر ثلاث :

(١) تلك النظرية التى تنادى بأن اللغة لم تكن إلا نتيجة تقليد لأصوات طبيعية صدرت عن الانسان نفسه كما سمعها الانسان من الحيوان وفى مظاهر الطبيعة .

(٢) النظرية الثانية هى تلك التى تقول إن اللغة ليست إلا نتيجة لغريزة انسانية قديمة كانت خاصة بالانسان الأول . وتقضى هذه الغريزة بأن كل أثر خارجى له صدى صوتى يصدر عن الانسان كما يحدث من ظواهر جسمانية كارتفاع الوجه أو اضطراب القلب نتيجة آثار خارجية وبطريقة غريزية لاسلطان الانسان عليها .

(٣) وتقضى النظرية الثالثة بأن كل مجهود عضلى شديد يقوم به الانسان يخف حمله حين يتنفس المرء بشدة ويكرر تنفسه . ويتبع هذا التنفس الشديد أن الأوتار الصوتية تنذبذب وتصدر الأصوات التى تتطور فيما بعد إلى لغات .

تلك هى أهم نظريات القرن التاسع عشر فى صورة مقتضبة لأننا لم نرم هنا إلى شرحها وتحليلها فهى معروفة للكثيرين منا . والذى يمكن أن يعاب عليها جميعا هو أنها تفسر لنا نواحى محدودة للغة وتعجز عن تفسير أهم نواحى اللغات ومظاهرها . كما أنها تعطى الفرد كل الأهمية فى تكوين اللغة ولا تكاد تلح فيها أثر المجتمع فى هذا التكوين رغم أننا نعلم أن اللغة ليست الاظهرا اجتماعيا . وفوق هذا وذاك فأصحاب هذه النظريات فرضوا علينا أن نتصور معهم وجود مجتمع انساني صامت فيه نشأت اللغة !! .

لم تجد إذن تلك الوسيلة التى لجأ إليها علماء القرن التاسع عشر حين بدأوا تفكيرهم فى نشأة الكلام بطريقة قياسية ففرضوا أول الأمر وجود مجتمع انساني ثم لعب خيالهم الخصب فى تصور نشوء لغة فى هذا المجتمع .

أما الاتجاه الحديث بين علماء اللغات فى البحث فى هذا الموضوع فهو أنهم يميلون إلى

الطريقة الاستنباطية بمعنى أنهم يبدأون البحث في اللهجات الحديثة . ثم ماتفرغت عنه من لغات قديمة ثم الأقدم وهكذا راجعين إلى أقدم عناصر لغوية رواها لنا التاريخ في صورة نقش من النقوش . وهم يرجون بهذا أن يستنبطوا القوانين العامة التي خضعت لها اللغات في تطورها في القرون التاريخية .. ومن تلك القوانين بعد التأكد من صحتها جملة وتفصيلا يمكن أن نصور لأنفسنا ما كانت عليه اللغة في عصور ما قبل التاريخ تصويرا أقرب إلى اليقين من تلك النظريات التي ذكرتها آنفا وهم أيضا يستعينون في بحثهم بلغة الأطفال مع شيء من الاعتدال وبلا مغالاة في الاعتماد عليها لأن الطفل حين يبدأ المرحلة التقليدية لأصوات من حوله يختلف كل الاختلاف عن الإنسان الأول . فالطفل يقلد لغة كاملة النمو وحوله من الناس من يحسن تلك اللغة ويتكلم بها سليقة . والمحدثون يقصرون مدى انتفاعهم بلغة الطفل على تلك المناغاة التي يتسلى بها الأطفال قبل تمام السنة الأولى من سنهم أو تلك الأصوات الوجدانية غير الإرادية التي تصدر من الطفل حين تلبسه بحالة انفعالية كالخوف والغضب والسرور .. الخ .

وليس بصحيح أن مراحل كسب اللغة عند الأطفال تمثل مراحل نشأتها عند الإنسان الأول . فكما أن المراحل التي يمر بها الغلام في تعلمه اللعب على د البيانو ، مثلا لا يعقل أنها تمثل لنا التطور التاريخي للوسيقى كذلك لا يعقل أن مراحل نمو اللغة عند الطفل تمثل مراحل نموها عند الإنسان الأول اللهم إلا تلك الأصوات الوجدانية التي تصدر من الطفل وليس للبيئة الاجتماعية التي تحيط به سلطان عليها . ويستعين المحدثون كذلك بلغات الأمم الأولية في بقاع المعمورة تلك اللغات التي من غير شك تمثل مراحل لغوية قديمة تشبه في بعض الأحيان مراحل بعض عصور ما قبل التاريخ .

على أن الهاد الأول للمحدثين هو التطور التاريخي لما نعرفه من اللغات معتمدين في هذا على مادون في كل العصور من آثار لغوية بما في ذلك تلك النقوش التي عثر عليها قديما وحديثا . وهم يرجون بهذا أن يصلوا عن طريق مقارنة تلك الآثار اللغوية إلى استنباط القوانين العامة التي خضعت لها اللغات في تطورها . وتلك القوانين

تحت سماء يثرب

المستأوف خلف القاضي

المحضر الأول : جماعة من الرعاة والاحياء ، يمثلون طوائف اليهود ، في يثرب ، يتجادلون في ، أعلم لهم ، ويتشاورون في شأن محمد ، وقد علوا بهجرتهم إلى مدينتهم

حي بن أخطب : يا معشر يهود يثرب ! أعرقتم لماذا تجتمع اليوم ؟

ابن الأشرف : نعم ! لتحدث في أمر محمد ! ...

حي : أو تقسمون بالوراثة على أن ندافع عن اليهود ، ونحارب محمدا ؟

عبدالله بن سلام : أو نخافون محمدا ، على اليهودية ؟

محيرق : وكيف ؟ وهو يدعو إلى التوحيد ، ويحارب الوثنية ، ويؤمن بالبعث .

كعب بن أسد : لسنا نخشى محمدا . وإنما نشفق أن ينتقل النفوذ والسلطان إليه ...

إلى أولئك النفر من المهاجرين .

عزير : وأبي بن سلول ؟ كيف يرضى ذلك ؟ كيف يخضع للتطورات

الجديدة ؟

ابن أبي الحقيق : لن يرضى أبي بالوضع الذي تكرهه الظروف على مواجهته . فهو

سيد الخزرج ، وقومه ، عقدوا له الخرز ، ليجعلوه ملكا على يثرب !

عزير : إن حظ هذا الرجل لسيء . أكذلك ؟ قبل أن يتبوأ العرش ، ويلبس

التاج ، يعترضه هذا المنافس الخطير ، ليسلبه التاج والأمل !

فناحس : ما أراه يتقبل الدين الجديد ، أو يخضع لتعاليمه !!

تعيين على تصور مراحل تطور اللغات في عصور ما قبل التاريخ بل وفي عصر نشأة الكلام .

وليس المقصود بالقوانين اللغوية ماهو معروف من معنى القانون حين يطبق على المظاهر الطبيعية كقانون الجاذبية مثلا بل كل مايطمع فيه اللغوى هو أن يرى قانونه ينطبق على الغالبية العظمى من اللغة التى يبحث فيها . ولهذا قد يشذ قليل من الأمثلة عن قانونه لظروف لغوية خاصة لم يمتد الى سرها أو الى الكشف عنها ! وقد استطاع المحدثون استنباط بعض تلك القوانين بصفة مؤكدة وحقى عليهم بعضها وذلك لأن عمادهم فى المقارنة كان دائما مادون من آثار لغوية ، والمتفق عليه بين علماء اللغات أن الرسم وسيلة ناقصة لتصوير الأصوات اللغوية وأن هناك دائما وفى كل العصور بعض الفروق بين لغة الكتابة ولغة الكلام . فلو أن بين أيدينا الآن اسطوانات سجل عليها نماذج لغوية للعصور التاريخية تسجيلا صوتيا لآدى هذا إلى ثورة فى البحث اللغوى ولذا كذلك إلى تأكيد تلك القوانين اللغوية بصورة لا تقبل الشك بل ولزاد عليها تفصيلات ربما تفوق تصورنا رخيالنا .

والعصور المستقبلية ستلقى عهودا أزهى فى البحوث اللغوية . وعلماء اللغات فى المستقبل ان يجدوا أنفسهم فى مجال الظن أو الترجيح بل فى مجال اليقين . فسينون نظرياتهم على سجلات صوتية الانسان فى كل لغة .

بل لايبعد أن العصور المستقبلية تشهد انقراضا لتلك الوسيلة الناقصة التى سجلت بهذا أصواتنا اللغوية أعنى الكتابة أو الرسم فيحل محلها التسجيل الصوتى على اسطوانات يتم استعمالها بين الناس . ولعل اختراع « الديكتافون » يبشرنا بهذا العصر الذهبي !!

فطن المحدثون الى أن معرفتنا بلغات الأمم القديمة فى العصور التاريخية معرفة غير كاملة لأن ما روى لنا منها ليس الا قلا من كثر هذا الى أن الرسم وما فيه من نقص قد قلل بعض الشيء من قيمة ذلك القدر الذى روى لنا . ولكن لم يمنهم هذا من عقد المقارنة بين اللغات واستنباط القوانين باذلين فى هذا جهودا علمية جبارة لهم يصلون الى ما ينشدون من تصوير اللغة الانسانية الأولى على أساس تلك القوانين

العامة التي خضعت لها اللغات في تطورها في العصور التاريخية .
وقد قورنت اللغات الآورية الحديثة بما تفرعت عنه من لغات قديمة فقورنت
الانجليز الحديثة بأصلها القديم « Gathnic » . ثم الفرنسية والاطالية والاسبانية
باللاتينية . وبعض اللهجات الهندية الحديثة بالسنسكريتية وهكذا تمت المقارنة .
بين الحديث والقديم من اللغات مصورا لنا فيما دون من آثار لغوية .
وكذلك قورنت اللغات السامية القديمة بما تفرع عنها من لهجات حديثة . وإن
كنا لم نقطع في هذه المقارنة الشوط الذي قطعه علماء الغرب في مقارنة اللغات
الهندية الآورية .

والقوانين العامة التي وصل اليها العلماء بمقارنة اللغات منها ما يتعلق بالناحية
الصوتية وما يتعلق ببنية الكلمة وما يتعلق بتركيب الجملة .

الاصوات

لاحظ العلماء أن اللغات في تطورها تميل عادة إلى السهولة في نطق الاصوات
ليكون المجهود العضلي أقل في صدورهما . وقد أدى هذا إلى أن الاصوات الصلبة
المعقدة قد انقرضت أو هي آخذة في الانقراض من لغات البشر . وفي معظم اللغات
الآن تتكون الاصوات بخروج الهواء من الرئتين مارا في طريقه بالأوتار الصوتية
ثم أقصى النهم ثم فراغ النهم ثم الشفتين حتى تنتشر في الفضاء .

أما تلك الاصوات التي تتكون بالطريقة العكسية لما تقدم والتي تبدأ مع تنفس
الهواء كما يسمع عند المص أو حين يتلذذ المرء بطعم شيء فلم يبق لها أثر إلا في بعض
اللغات الاولى كتلك الاصوات المعروفة في لغات وسط أفريقيا وجنوبها والتي
تدعى « clichs »

وفي عصورنا التاريخية نلاحظ الميل إلى هذا في تطور اللغات السامية فقد
انقرضت في الحديث منها بعض الاصوات الصعبة « كالعين والذال والظاء والضاد »
كما هو الحال في العبرية والسريانية مثلا . وقد احتفظت العربية بهذه الاصوات لأنها
انزلت في البيئة الأصلية للغات السامية وهي جزيرة العرب . في حين أن السريانية
والعبرية كما رويانا لنا أصابهما بعض التطور الصوتي في بيئتهما الجديدة . هذا بعض

ليد بن أعصم : بلى ! . فإن عبد الله رجل طموح ، وإنه ليعرف أين يضع نفسه ،
ويقاوم صاحبه ما استطاع

أزار : لا . بل أراه رجلاً كيساً ، فيه دهاء وروغان ، وما أظنه إلا سيستقبل
الدين الجديد ، ولكن يؤمن بلسانه ، ويكفر بقلبه ! .

حي بن أخطب : لقد كان رئيس الخزرج ، وأراه سينال حظاً أوفر ، لو تم الغلب
لمحمد ! .

فنحاص : إن حب الرياسة ، داء قديم في الإنسان ، فسوف يدبر ويكيد ،
ويقيم المراكيل ، ويقاوم هذه الدعوة ، ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ،
ولكن ... من وراء ستار ..

حي بن أخطب : لقد ابتعدنا عن الطريق ؛ فلنأخذ في شأن اليهودية ، وموقف
محمد منا ! .

أزار : إننا لن نترك الزمام ، يغلت من أيدينا ، فستقاوم محمداً بالذهب
إذا فكر في توجيه دعوته إلينا . وسنربى له في المال إذا احتاج
إليه محال أن يتقبل الربا . فإن دينه يحرمه .

عبد الله بن سلام : وأنت يا ابن الأشرف ! ماذا ترى ؟ .

ابن الأشرف : سأحاربه بالسيف واللسان ، سأهجوّه بالشعر ، وأنضم إلى أعدائه
من قريش ، وأهيج القبائل لحربه ، وأصد دعوته في كل واد ! .

بحرق : يالك من ظالم ! إن محمداً ليؤمن بإهلك : يتفق مع اليهود في التوحيد
وهو اسماعيلي من ولد إبراهيم ، فما ينبغي — ونحن بنو يعقوب بن
إبراهيم — أن نحارب ، ونصد عنه . ونحن منه أبناء عمومة ،
وأخوان لأب !!!

حي بن أخطب : إننا نخاف على أنفسنا ، ونخاف على اليهودية من محمد ، نخاف أن
نضطهد في يثرب ، كما فعل فرعون ، مع قومنا في مصر ، ذبح الأبناء ،
واستحيا النساء !! .

كعب بن أسد : بل نخاف أن يفعل بنا ، كما فعل دختنصر ، مالك بابل ، يوم حاصر

ما يجعلنا نرجح أن اللغة العبرية كما رويت لنا تمثل طور اللغات السامية أقدم مما تمثل اختاها العبرية والسريانية . على أن بعض أصوات اللغة العبرية ، قد انقرضت من لغات التخاطب التي تفرعت عنها والتي يتكلم بها الآن في مصر وغيرها من الممالك العبرية .

ما يتعلق ببنية الكلمة :

لوحظ هنا ميل عام في جميع اللغات الى تقصير الكلمات والتقليل من مقاطعها . والعلماء الآن يرجحون الرأي القائل ان الكلمات بدأت متعددة المقاطع وتطورت حتى وصل بعضها الى مقطع واحد . وهم لهذا يرجحون أن لغات ما قبل التاريخ ملئت بكلمات طويلة معقدة الأصوات .

وقد يلقي ضوءا على هذه الظاهرة أوزان الفعل التي رويت لنا في اللغة العبرية والتي لا نظير لها في أخواتها السامية ، والتي لا تكاد تعثر عليها في شواهد لغوية محققة نسبتها مثل اخشوشن اعلو ط احرنجم افرنقع ... الخ . فمن المرجح أن مثل هذه الأوزان كان شائعا في العبرية البائدة .

كذلك لاحظ المحدثون أن اللغات القديمة بوجه عام تشتمل على أوزان أكثر من الحديثة في الفعل والوصف والاسم . فاذا قورنت الاوزان العبرية للفعل مثلا بما روى لنا من أوزان العبرية والسريانية ، اتضح لنا وجه آخر للتدليل على احتفاظ العبرية بعناصر قديمة أكثر مما في أختها العبرية والسريانية اللتين لو أتيح لهما أن تظلا لغة كلام حتى الآن اتخلصتا من كثير من أوزانهما . ويكفي هنا أن أشير إلى ما اختلفت به العبرية من أوزان قياسية أو تكاد تكون قياسية للدلالة على أمور خاصة : كجموع التكسير وأفعال التفضيل ومصادر الثلاثي المتعددة . كذلك نحن نعلم أن لكل فعل متعد في العبرية صيغة للتعبير عن البناء للجهول ولم يبق من كل هذا إلا أثر ضئيل في أخوات العبرية من اللغات السامية . فالعبرية والسريانية مثلا يعبران بالفعل المطاوع عن البناء للجهول . وليس المقام هنا مقام حصر العناصر القديمة التي احتفظت بها العبرية فهذا حديث طويل ربما كان من المستحسن أن يفرد له مقال خاص .

القدس ، ودمر المعبد ، وأخذ اليهود أسرى إلى بلاده ، ف قضى على

ملك يهوذا ١١

عبدالله بن سلام : هذا قانون الغالب ، ودستور المنتصر ، من الملوك والفاتحين ...
في الشرق والغرب .

ألم يفعل ذو نواس « اليهود » ملك الين ذلك حين خير نصارى
نجران ، بين اليهودية والقتل ، فاختاروا القتل ، فغدهم الأخدود ،
وحرق من حرق بالنار ، وقتل بالسيف من قتل ؟

حي بن أخطب : (ساخرا) أراك حفظت شيئا — يا محيرق — من قرآن محمد ؟
محيرق : نعم . والله ! فقد سمعت من أصحابه رجلا ، يقول في صلاته :
« قتل أصحاب الأخدود ، النار ذات الوقود ، إذهم عليها قعود ،
وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نعموا منهم إلا أن يؤمنوا
بالله العزيز الحميد »

شموبيل بن زيد : وهل ترى محمدا — وهونبي — يفعل ما يفعل قواد العسكر ؟
أترأه يحرق التوراة ، ويدوسها ، كما فعل الرومان ، حين غلبوا اليهودية
في أورشليم ؟

محيرق : لا ! وإنه ليكره سفك الدماء فهو مصلح وحاشا أن يكون سفاحا ،
وعادل تنزه أن يكون طاغية . أنه بالمؤمنين ردوف رحيم . أما
إذا رأيتم أن تقضوا له عهدا ، أو تتكثروا له حلفا ، فانه سيحاربكم
ويقتل عليكم ، بل يحلوكم عن دياركم ، طوعا لأمر الله ، وبمشيا
مع سياسة الاسلام .

أزار : انكم تسرفون في توهم قوة محمد ، فلن يستطيع هذا الطريد ، أن
تكون له القوة ، التي يحارب بها قريشا في مكة ، وينقلب على
اليهود في يثرب .

حي بن أخطب : صدقت يا أزار ! فان الأوس والخزرج ، مختلفان ، وبينهما نار

قديمة ، وأحقاد موروثة ، من يوم بعث ، فالخزرج يضربون العداوة
للأوس ، وينتظرون اليوم الذى يثارون فيه من خصومهم ، أقرامهم
ينسون ما بينهم ، من أجل محمد ؟

محيرق : نعم ! سينسون ما بينهم من أجل محمد ، وسيؤلف بينهم الدين
الجديد ان الاسلام لا يعرف فضلا لقبيلة على قبيلة الا بالجهاد
والعمل ، ولا الفروق الاجتماعية ، التى كانت بين العشائر فى
الجاهلية !! .

عبد الله بن سلام : يا معشر يهودا :

انكم لتضربون العداوة ، لغير عدو ، ان محمداً يسالمكم ، فهو أبداً
يذكر موسى و ابراهيم والتوراة ، ويمجد ماضى اسرائيل .
أزار (ساخرا) : أعندك أيها الخبر ، ماتحكى عن ذلك من قرآن محمد ، يؤكد
هذا الرأى الغريب ؟

محيرق : بسم الله الرحمن الرحيم : قد أفلح من تزكى ، وذكر اسم ربه فصلى ،
بل تؤثرون الحياة الدنيا ، والآخرة خير وأبقى ، ان هذا لى
الصحف الأولى صحف ابراهيم وموسى !

حبي بن أخطب : لقد صبأت يا محيرق ! . وما أراك إلا داعية لمحمد ، فكيف بالله
سولت لك نفسك ، أن تهجر دين آبائك وأجدادك ؟

عبد الله بن سلام : لم يصبأ محيرق ، ولم يهجر دين أبيه ، إنا ومحمداً ، على دين واحد ،
هو دين أبينا ابراهيم ، وأتم الذين حرقتم الكلم ، وبدلتم فى التلودا
ابن الأشرف : ماذا أسمع ؟ وأنت أيضا أيها الخبر ؟ ١٤ .. أ كفرا بعد ايمان ، فى
بجس السادة من قومك ١٤ ..

ليد بن أعصم : نعم ! وانه مع ذلك ، ليحكى لنا من قرآن محمد ، ما يحاول به أن يغير
من ديننا ١١

عبد الله بن سلام : بسم الله الرحمن الرحيم :

« ما كان ابراهيم يهوديا ولا نصرانيا ، ولكن كان حنيفا مسلما ،

حي بن أخطب : « بهم يضرب عبد الله بن سلام ،
فتحصص : » يقف في طريقه ،

لا تفعل ! انه سيدك ورئيسك ! .

كعب بن أسد : دسيسة !! إنه يحاول أمرا خطيرا ، لقد كاد يفسد علينا أمرنا ،
وما اجتمعنا له ، في هذا المكان !

محريق : يا معشر يهود ! :

لقد انتظرتكم المسيح زمنا ، فلما جاء ، كفرتم به ، ولعلكم ما تزالون
في انتظار المسيح الثاني . وهيهات ، هيهات !! . . .

حي بن أخطب : لقد تجاوزت حد الكفر ، إلى التعصب لمحمد ، والدعوة لدينه ،
والدفاع عنه ، أي جريمة تقترب ، ضد قومك يا محريق ؟ !

محريق : أجل ! إني لمؤمن بمحمد ، وإنه النبي المنتظر ، هكذا تقول توراتكم :
وقد آن أن تدوب اليهودية في الاسلام ، وأن نعترف ..

حي بن أخطب : إنك مسلم أكثر من عمر ، وصديق لمحمد أخلص من أبي بكر !
محريق : سأحارب في جيشه طائعا ، ولئن قتلت لأوصين بمالي لمحمد !!

حي بن أخطب : باللعار ! وددت أن يكون بي صمم ، فلا أسمع ، وعمى فلا أرى !
ويل لليهود من محريق !!

كعب بن أسد : ماذا يقول الناس غدا ، وقد بلغهم هذا النبأ ، وماذا يفعل الأعراب
من أهل البادية ، حين يسمعون أن الأحبار يتركون دينهم ليدخلوا
في دين محمد ؟ !

حي بن أخطب : سأحارب محمدا ، في داخل يثرب ، وفي خارج يثرب ، وأؤلف عليه
الأحزاب ...

ليد بن أعسم : سأنفذ في العقد ، وأعمل التعاويذ والسحر لمحمد ، وأشبه له ، حتى
ما يدري أفعل الشيء أم لم يفعله ؟

عبد الله بن سلام : ان محمدا في حفظ الله وعصمته ، وإن يخذله معكم ، ويكناجه من المؤامرة

التي دبرها له أعداؤه في مكة ، فتخلص ونجا ، سيعصمه الله في يثرب ،
من شر ما يبتون له ! .

ابن أبي الحفص : سأعرض القبائل المجاورة ، وأجمع طوائف اليهود ، في خيبر ،
وتبعا ، وراوى القرى ، وفدك ، لتقف صفا واحدا ، في سبيل
دعوة محمد !

عبدالله بن سلام : هيهات هيهات فإن الله سينصر دينه عليكم ، وعلى قريش جميعا
كعب بن أسد : وفي يده سيف يحاول شج رأس عبد الله ،
فخاص : « يتدخر ،

عفوا يا سيد بنى قريظة ! إني أشيم نصرا لهذا الرجل في المستقبل ،
ألم تروا إلى مصعب بن عمير ؟
بعثه محمد . وحيدا إلى يثرب ، يعلم الانصار الدين ويرشدهم إلى طاعة
الله ، في كل حي ، ودعا كل سامر ، حتى جعل في كل بيت محرابا ،
وبعث إلى كل قلب إيمانا ، وأجرى على كل لسان قرآنا ؟ !

عبدالله بن سلام : انه الفتح ، وغدا سيفخر هذا النور المتألق ، الفجاج والباق .
شمويل : إني أسألكم نفسي ، وأسألكم وأعجب ! ان اليهودية لتجاور العرب
منذ مئات السنين ، فما تهود منهم ، الا من نذرته أمه لليهودية ،
ليعيش في الحياة !

عزير : وهذا الدين على طرافته ، نراه قد أفرغ مكة ، وملا حديته الجزيرة
وشغل الناس عن كل شيء حتى أصبح حديث اليوم ، وسمر الليالي .
عبدالله بن سلام : ذلك . سمولة هذا الدين ، وسماحة محمد ، فالعربي لا يجب الحد من
حرية . واليهودية إذا لامت أبناء يعقوب ، فانها لا تناسب مزاج
العربي . ولا توافق الحرية التي فطر عليها .

ابن أبي الحقيق : أتظن - شمويل - أن هجرة محمد إلى يثرب ، تنقل الزعامة ، من مكة ،
إلى شمال الحجاز ؟

شمويل : بل تعقب رحلة الشتاء والصيف ، على قريش ، فيسكون محمد بسيد

الصحراء ، وسيقف جنده على طريق القوافل ، بين العراق والشام
و يدخل خادم (بعد استئذان) قاعة المؤتمر ،

الخادم في أدب : مولاي وسيدى حي :
رأيت للساعة ، نساء وأطفالا ، مسرعين ، نحو الجنوب ، يذكرون
قبا ، ويتأهبون لاستقبال قادم عظيم !

حي بن أخطب : صحيح ١٤
إن شيئا ثمة ، ينبغي أن نراه ، لينفض المجلس ، وإلى اللقاء في غد .
الجميع : يخرجون والهم باد عليهم ، ويتأخر الخبران ، حتى يتفرق الجمع ،

المنظر الثاني || في طريق قبا ، وتحت أشعة الشمس الحارة وقف الخبران حائرين

محيرق : و يحاطب صديقه عبد الله ،
هيا يا عبد الله ، الى مصعب ، نسمع منه قرآنا ، ونستقبل عنده
الرسول ، في قبا .
عبد الله بن سلام : أوافقك . ولكن ...

محيرق : أتخاف على نفسك ، من بنى قينقاع قبيلتك ؟
عبد الله وضاحكا : لا ! ولخني أعجب لأطفال الانصار كانوا يروون الكثير من شعر
العصور ، فهجروه ، الى هذا القرآن ، ماتملون تلاوته وحفظه ؟

محيرق : أو يكون للشعر قيمة ، اذا سمع البدوي ، هذا التنزيل الحكيم ؟
عبد الله : اذا سمعه العربي ، فانه يسجد له ، كما كانوا يسجدون للشعر ، بل
سيحفظ ويدرس في المجامع والمساجد ، ويكون حظه ، من الاجلال
والتعظيم ، أكثر من المعلقات الشعرية ، التي كانت ، ولا تزال معلقة
حول أستار الكعبة .

محيرق : قد بطلت آية الشاعر ، وجاءت آية النبي ، سيمجز الشعراء والكهان

والمتشبسون عن التحدي ...

عبد الله : ان هذا الفرقان ، يغزو القلوب والعقول ، والمشاعر وسيتفانى

العرب ، تحت رايته ، حتى يتم الفتح

محيرق : ألا ليت شعري ! هل أعيش ، حتى أرى انهزام الوثنية وتحطيم الأصنام ؟

عبد الله : ستميش يا محيرق ، حتى نرى ذلك العربي ، يخلص العرب جميعا ،

من ظلم فارس ، وجبروت الروم ، ستميش ، حتى نرى هؤلاء

المتأذرة ، قد تحرروا من سيطرة كسرى ، على الحيرة ، وتسلموا قبصر

على الفساسة في الشام ، وتعود العرب أمة واحدة ! ...

محيرق : إن هذا البطل لن يحرر العرب وحدهم ، بل سيحرر الإنسانية كلها ،

يحررها من الظلم والقهر ، ومن التسلط والاستعباد !

عبد الله : ها قد وصلنا الى قباء ! أرايت الى مصعب والأطفال عنده ، كيف

يحفظهم القرآن ، ويتدارسونه ؟ !

« بعد وصولها الى مصعب في قباء ،

محيرق : حيث يا مصعب ! وسلام الله عليك !

مصعب : حياك الله . وسلامه عليكم !

تفصلا !

مصعب : « أمامه صبية ، ومعها آيات من القرآن في الخاف ،

أحفظت آية النعيم ؟

الصبية : نعم ! .

أحد الحبرين : أسمح لنا ، أن نسمع القرآن ، من هاته الصبية ؟

مصعب : حبا وكرامة ! !

الحبران : « يدخلان ، ويجلسان على فراش الحجرة في خشوع ،

مصعب : أقرئ يا أم كلثوم !

أم كلثوم : بسم الله الرحمن الرحيم :

« يا عباد الاخوف عليكم اليوم ، ولا أنتم تمزنون ، الذين آمنوا
بآياتنا ، وكانوا مسلمين ، ادخلوا الجنة . أنتم وأزواجكم تحبرون »
بطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشبه الآنس
وتلد الأعين ، وأنتم فيها خالدون ، وتلك الجنة ، التي أوردتموها ، بما
كنتم تعملون ، لكم فيها فاكهة كثيرة ، منها تأكلون ،
صدق الله العظيم .

عبد الله

: ويخاطب مصعب .

لمن هذه الجنة ؟

مصعب

: لمن يؤمن بالله ، ويصدق بمحمد ، ويعمل صالحا .

للرجال والنساء ، نعيم مقيم ، وخلد دائم .

محيرق

: ينظر الى صاحبه متأثرا ،

: أحقا ما سمعت ؟ وهل وصل النبي قباء ؟

عبد الله

: قد خرج النبي من مكة ، منذ أسبوع ، يوم الاثنين أول ربيع الأول .

مصعب

وهانحن أولاء ، في انتظاره ، منذ يومين .

محيرق

: أليس لديكم نبأ عن مواعده ؟ لقد سعينا من يثرب ، مستخفين .

لنحظى بلقائه ، ونسعد بيمينه وبركته .

مصعب

: لقد ظهرنا الى الحرة هذا اليوم ، نرتقب حضوره ، حتى غلبتنا

الشمس ، فأكرهتنا على الرجوع .

: في نهايته هذا الحوار ، يدخل رجل يهودي ،

الرجل اليهودي : يا بني الحرج !

ان حظكم قد جاء ، فقد رأيت رجلين يمشيان وراحتين يسوقهما

رائد في الحرة !

امراة

: في ظاهر الحرة ؟

الجميع

: يخرجون ، ليستقبلوا النبي ،

: أرى رجلين ، يمشيان في ظل نخلة !

رجل

غلام : لقد فارقا النخلة وانحسر عنهما الظل .
 المرأة : أذاك أبو بكر ، أم محمد ؟
 مصعب : انهما متقاربان في السن ، متشابهان على البعد .
 رجل : أرى أحدهما ، يتقدم خطوة ، ويتأخر أخرى ، ليظل صاحبها ،
 من شدة الحر .
 مصعب : انه أبو بكر ، يخاف على صاحبه ، من وهج الشمس ، فيظلل برداءه
 المرأة : وافرحته ! وافرحته محمد ! نبي الله
 الخبران هما في لفظة : أحقا تقولين يا امرأة ؟
 المرأة : لا يحبب .
 تزغرد : يشرف الناس من ميوتهم ،
 الجمع وفيه الخبران . محمد — النبي ! يكبرون
 أصوات : الله أكبر . الله أكبر .
 الأطفال : يتقدمون فرحين ، ومعهم الطبول وآلات الفناء .
 أحدم : هيا نشد الأغاني بين يدي النبي
 الجميع : هيا .
 الطفل : يبدأ النشيد والأطفال يرددون معه ..

نشيد الهجرة (١)

اشرق بالآماني يانجوم السحر
 واهتنى بالنهاي ياطيور الشجر
 وانفخ في المغاني يا عيون الزهر
 ها هنا . ها هنا . طلع الصباح
 شارق رف في الدجى حفه النور والجلال

(١) النشيد للأستاذ سعيد العربيان

موكب الحق والهدى يتهاذى على الرمال

يؤذن الكون . يؤذن الكون . بالصباح

اشرقى بالامانى

.

يا لركب على القلاة خير ركب على سبيل

موكب الطهر والصلاة انه موكب الرسول

يؤذن الكون . يؤذن الكون . بالصباح

اشرقى بالامانى

.

.

مكلف الفاضلى

المدرس بالناصرية

الحلف الأعظم

المؤلف: محمد محمود غنيم

القصيدة التي نالت الجائزة في المباراة الشعرية

التي نظمتها الإذاعة اللاسلكية البريطانية سنة ١٩٤٣

هل بات يطوى الحرب في أعماقه	قم سائل «الاطلنط» عن ميثاقه
فتفتحت رثاى لاستنشاقه	السلم هب من المحيط نسيمه
حتى يمد السلم ظل رواقه	عقدوا خناصرهم على خوض الوغى
حسما . وبعض السلم من ترواقه	قد تحسم الحرب الضروس بمنلها
نقشته ريشته على أحداقه	حلف وعاه بصدره التاريخ . بل
من نفخ «إسرافيل» في أبواقه	ما كان عند الخصم إلا صورة
والدهر أقبل آخذا بخناقه	وكانه القدر المتاح له انبرى
تحكيه فيما امتد من آفاقه	أمضته في عرض المحيط بممالك
قامت حضارته على أخلاقه	من كل شعب باليقين مسلح
يطلبه بالصبر الجميل يلاقه	صبروا على حر الوغى . والنصر من
هو باطل غمّلوا على إزهاقه	لم بدخلوها طامعين وإنما

أمسى يغار النجم من إشرافه	إن الذي سموه بحرا مظلم
فتشبهوا بالبحر في إغداقه	وضعوا الحقوق على صحيفة موجه
لا يشتكى حزن القيود بساقه	وضعوا القواعد والرسوم لعالم

حر العقيدة . كل خلق سالك
 حر المرافق حرة أمواجه
 وضع السلاح فلاشواط به ولا
 ضمن الضميف حقوقه فيه كما
 لا ينعم الانسان فيه بزاده
 هذا هو الجيل المثالي الذي
 تبا لجيل بالدماء مخضب
 قد كاد يرجع بالزمان القهقري
 أمم تبارت في الدمار كأنه
 فيه محبته إلى خلاقه
 لاجر مضروب على أسواقه
 أسياف مصلته على أعناق
 أمن الفقير به على أرزاقه
 وأخوه طاوى البطن من إملاقه
 قد كان « أفلاطون » من عشاقه
 يشكو الطوي ويئن من أطواقه
 ويعيد عهد خيامه ونياقه
 مضمار نحر وهي خيل سباقه

* *

لله قوم يخطبون النصر ما
 الشرق من خدع السياسة مشقق
 الحق علم غاصبيه بعدما
 والحرب قد أرت الضميف بعينه
 صارت شعوب الأرض شعبا واحدا
 إن الآلى كلفوا بالاستعمار قد
 ماضق بالناس القضاء وإنما
 ولد ابن آدم وهو حر مطلق
 ضنت نفوسهمو يبذل صداقه
 قولوا له : لا يغفل في إشفاقه
 طانوه أن يسعوا إلى احقاقه
 إرهاب من عملوا على إرهابه
 من يبك منه بكى بدمع رفاقه
 باتوا وهم يشكون من إخفاقه
 هم ضيقوه على اتساع نطاقه
 شلت يد عملت على استرقاقه

محمود غنيم

فهرست

العدد الرابع من السنة التاسعة

الموضوع	الكاتب	صفحة
مفحات مجهولة من تاريخ العرب في أوروبا	للاستاذ عمر الدسوقي	٣
مكتبة الجاحظ	د عبد السلام هارون	١٦
مشكلات	د زكي المهندس	٢٣
نشأة الكلام	د ابراهيم أنيس	٤٠
تحت مهاب يثرب	د خلف القاضي	٤٩
الحلف الاعظم	د محمود غنيم	٦٠